القسم الثانى

الباب الرابع : المدرسة الكبرى
الباب الخامس : المنهج العلمى
الباب السادس : إلى الرفيق الأعلى

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الرابع

المدرسة الكُبرى

يا أهل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله فى القرآن أنزله
كفاكمو من عظيم القدر منزلة من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

« الشافعى »

obeikandl.com

فى هذا الباب محاولة لرسم خطوط تقريبية للبنيان العظيم لفكر الشيعة الجعفرية « الاثنا عشرية أو الإمامية » الذى كان الإمام الصادق فى طليعة بُناته ، والذى يحمل اسمه ، وإن شاركت فى رفع صرحه مدرسة كاملة من السابقين عليه ، والآخذين إخذه ، من تلاميذه وتلاميذهم . بدأت بالنبى عليه الصلاة والسلام ، مدينة العلم ، وعلىّ بابها . وتتابع فيها الصحابة العظماء ، والتابعون وتابعو التابعين . وفى الأجيال الثلاثة الإمام علىّ والحسن والحسين ثم زين العابدين فالباقر فالصادق .

ثم تلمذ للإمام الصادق فريق المخضرمين ممن تعلّموا على أبيه أو أبيه وجده ، ومن الشباب الذين تعاونت قرائحهم فى تفتيق الكلام فى العقيدة ، وتشقيق المعانى فى الفقه ، ليصبحوا للذين جاءوا بعدهم ، حتى اليوم ، علامات على الطريق .

وفى مشيخة هذه المدرسة ورد الفصل الأوّل .

والفصل الثانى يتناول أمورًا أساسية فى فكر المدرسة ، دون حصر لتفاصيله أو تطرق للاختلاف عليه بينهم وبين أهل السنّة ، أو بينهم وبين فرقهم ، حتى لا نخرج من إطار الصورة التى نحاول رسمها ، وتنقيتها مما تبرأ منه الشيعة ، وتقع التبعات فيه على الغلاة المطرودين .

وقد خصصنا بالبيان فى هذا الفصل مسألتين أصوليتين ، لكلٍّ منهما أثر فى الفقه ، سواء أكان فقه معاملات أم فقه عبادات – فبدأنا « بالحديث » وشروط قبوله ، وثنّينا « بالإمامة » . وأضفنا كلمات عن مسائل خلافية بين المذهب الجعفرى وبين غيره من المذاهب التى تتقاسم أهل السنّة . تخيرناها من شتى مناحى التفكير الفقهى ، لتتم أبعاد الصورة للقارئ ، ويزداد جانبها الخلفى جلاءً : أن الدين واحد عند أهل السنة والشيعة .

الفصل الأوّل
المدرسة الكُبرى

ماذا لقينا من أبناء علىّ إذا أحببناهم
قُتلنا . وإذا عاديناهم دخلنا النار .
« الشعبى »

أخذ الفروع والأصول عن الإمام جعفر جمع غفير من ثقات الشيعة ، ورووا ذلك لمن بعدهم على سبيل التواتر القطعى . ورواه هؤلاء ، لمن خلفوهم قرناً بعد قرن . فالصادق يروى علم من قبله ، ويروى الأئمة من أبنائه علمه . كما يرويه تلامذته . فهو الحلقة التى تتوسط السلسلة ، أو العروة الوثقى بين كتب آبائه وبين ما كتب بعده « الإمامية » .

المصحف الخاص أو كتاب الأصول :

آلى أمير المؤمنين على نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول صلى الله عليه وآله ، ألّا يرتدى إلّا للصلاة أو يجمع القرآن . فجمعه مرتبًا على حسب النزول . وأشار إلى عامّه وخاصه . ومطلقه ومقيده . ومحكمه ومتشابهه . وناسخه . ومنسوخه . وعزائمه ورخصه . وسننه وآدابه . ونبّه على أسباب النزول فيه .

ومن جلال شأن هذا الكتاب قال فيه محمد بن سيرين : « لو أصبت هذا

الكتاب كان فيه العلم » . فهو كما يظهر من محتوياته مصحف خاص وكتاب أصول من صنع عليّ .

والجامعة : كتاب طوله سبعون ذراعًا من إملاء النبى وخطّ عليّ . فيه ما يحتاجه الناس من حلال وحرام وغيره ، حتى ليصل فى التفصيل إلى أرش الخدش . « التعويض عنه » . وقد وصفها بذلك الباقر والصادق . وشهدها عندهما الثقات من أصحابها ومنهم أبو بصير . قال الصادق : « أما والله عندنا ما لانحتاج إلى أحد . والناس يحتاجون إلينا . إن عندنا الكتاب بإملاء رسول الله ﷺ وخطّ عليّ بيده . صحيفة طولها سبعون ذراعًا . فيها كلّ حلال وحرام » .

وقال : « إن الجامعة لم تدع لأحد كلامًا . فيها الحلال والحرام . إن أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدهم من الحق إلّا بعدًا . وإن دين الله لا يصاب بالقياس » .

قالوا : سميت الجامعة . والصحيفة . وكتاب عليّ . والصحيفة العتيقة .

كان أمير المؤمنين يخطب الناس فيقول : « والله ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلّا كتاب الله تعالى وهذه الصحيفة – وكانت معلّقة بسيفه – أخذتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله » .

ولقد دعا الخليفة أبو جعفر المنصور بكتاب عليّ هذا ، فجاء به الإمام الصادق وقرأ فيه أن النساء ليس لهن من عقار الرجل ، إذا توفى عنهن ، شىء وقال أبو جعفر : هذا والله خط عليّ وإملاء رسول الله ﷺ .

وأبو جعفر من العلماء كما قال عنه مالك إمام المدينة ، وكما أقرّ له الجاحظ كبير النقدة . فهو قد يقسم لأنه قرأ كتابة قبل ذلك لعليّ ، أو لأن لديه من العلم ما يعرفه أنها بإملاء النبى .

وكتاب الديات : وهو يغطى ما يسمى فى الفقه المعاصر « المسئولية المدنية » عن الفعل الضارّ بالجسم . أورد محتوياته ابن سعد فى كتابه المعروف بالجامع . وروى عنه أحمد بن حنبل فى المسند الأعظم. وذكره البخارى ومسلم. وروبا عنه.

مصحف فاطمة

ومن التراث العلمى عند الشيعة ما يسمّى مصحف فاطمة . حدثوا عن الصادق إذ سئل عنه « أن فاطمة مكثت بعد رسول الله خمسة وسبعين يومًا وكان قد دخلها حزن على أبيها . وكان جبريل يأتيها فيحسن عزاءها ويطيب نفسها . ويخبرها بما يكون بعدها من ذريتها . وكان علىّ يكتب ذلك . فهذا مصحف فاطمة » .

فليس هذا مصحفًا بالمعنى الخاص بكتاب الله تعالى وإنما هو أحد المدوّنات .

التدوين

يروى « الصدوق » فى الأمالى أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله قال : « المؤمن من إذا مات ترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة سترًا بينه وبين النار » .

وفى حياة النبى أو حياة علىّ ، اقتدت بعلىّ شيعته فى التدوين . أو قل : هديت لتنفيذ أمر الرسول .

يقول ابن شهر اشوب :

« أوّل من صنّف فى الإسلام علىّ بن أبى طالب . ثم سلمان الفارسى ثم أبو ذر » . والاثنان شيعة علىّ .

والسيوطى يروى أن عليًّا والحسن بن علىّ ممن أباحوا كتابة العلم بين الصحابة وفعلوها .

وألفّ أبو رافع مولى الرسول ، وصاحب بيت مال علىّ بالكوفة ، كتاب السنن والأحكام والقضايا . يقول موسى بن عبد الله بن الحسن : سأل أبى رجل عن التشهد فقال أبى : هات كتاب أبى رافع . فأخرجه فأملاه علينا .

أما علىّ بن أبى رافع فكتب كتابًا فى فنون الفقه على مذهب أهل البيت –

أى آراء علىّ بن أبى طالب - وكانوا يعظمون شأن هذا الكتاب ويحملون شيعتهم عليه .

ومن الشيعة زيد الجهضمى . حارب مع علىّ وألّف كتابًا يحوى خطبه . ومنهم ربيعة بن سميع له كتاب فى زكاة النعم . ومنهم عبد الله بن الحر الفارسى . له لمعة فى الحديث جمعها فى عهد رسول الله .

ومنهم الأصبغ بن نباته صاحب علىّ . روى عنه عهده إلى الأشتر النخعى . ووصيته إلى ابنه محمد بن الحنفية .

ومنهم سليم بن قيس الهلالى صاحب أمير المؤمنين ، له كتاب فى الإمامة ، وله مكانة عليا فى المذهب من حيث الأصول .

وذات يوم كان الحكم بن عيينة عند الباقر يسأله فقال : يابنى قم فأحضر كتاب علىّ . فأحضر كتابًا مدرجًا عظيمًا ففتحه . وجعل ينظر حتى أخرج المسألة ، وقال : هذا خط علىّ وإملاء رسول الله . وأقبل على الحكم وقال : « اذهب أنت وسلمة والمقداد حيث شئتم يمينًا وشمالاً ، فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبريل » .

ومن قبل الإمام الباقر وجدت عند الإمام زين العابدين الصحيفة المسماة الصحيفة الكاملة . وعن زين العابدين آلت إلى الشيعة رسائل عدّة منها رسالة الحقوق . ورسالة إلى ابن شهاب الزهرى[1] .

وكذلك ألفّ عمرو بن أبى المقدام جامعًا فى الفقه يرويه عن الإمام زين العابدين .

فلما صارت الإمامة للصادق حضّ على تدوين العلم أيًّا كان موضوعه ، دينيًّا أو دنيويًّا ، فقه عبادات أو معاملات أو علومًا تطبيقية . وكان يقول : « القلب يتكل على الكتابة » .

---

(١) وفى العصر ذاته كان سعيد بن المسيب أول فقهاء المدينة السبعة يخاف أن يكتب عنه العلم . جاءه رجل فسأله عن شىء فأملاه عليه . ثم سأله عن رأيه فأجابه . وكانوا من كثرة إفتائه يسمونه سعيد ابن المسيب الجرىء . فكتب الرجل . فقال جلساء سعيد : أتكتب يا أبا محمد ؟ فقال سعيد للرجل ناولنيها . فناوله الصحيفة فخرقها .

وكان يملى على تلاميذه . ويجيئهم بالدواة والقرطاس . ويقول : « اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا » .

ويلتمس سفيان الثورى إليه أن يحدثه بحديث خطبة الرسول بمسجد الخيف .ويرجوه ليأمر له بقرطاس ودواة ليثبته ، فيأمر له ، ثم يمليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . خطبة رسول الله فى مسجد الخيف . نضّر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها . وبلّغها من لم تبلغه . يا أيها الناس : ليبلّغ الشاهد منكم الغائب . فرب حامل فقه ليس بفقيه . ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وكتب عبد الله الحلبى كتابًا عرضه على « الصادق » فصححه واستحسنه . وسنرى حفيده الإمام العسكرى يعرض عليه يونس بن عبد الرحمن كتاب « يوم وليلة » فيصححه ويأمر بالعمل به .

ولما غاب « المهدى » فى النصف الثانى من القرن الثالث أحوجت « الغيبة » إلى الرجوع للمدونات التى تزخر بها خزائن الشيعة . إذ لم يكن لديهم إمام ظاهر يسألونه . وكثرت الكتابة عندهم فى القرن الرابع .

* * *

كان أوّل المستفيدين بالتدوين الباكر أولئك الذين يلوذون بالأئمة من أهل البيت فيتعلمون شفاهًا أو تحريرًا ، أى من فم لفم أو بالكتابة . فما تناقلته كتب الشيعة من الحديث ، هو التراث النبوى – فى صميمه – بلغ الشيعة فى يسر طوّع لعلمهم الازدهار . فى حين لم يجمع أهل السنّة هذا التراث إلّا بعد أن انكب عليه علماؤهم قرنًا ونصف قرن حتى حصلوا ما دونوه فى المدونات الأولى . ثم ظلّوا قرونًا أخرى ، يجوبون الفيافى والقفار فى كل الأمصار ، فتطابقت السنّة – فى مجموعها – عند هؤلاء وأولاء ، ألّا أمورًا لا تتصل بأصل الدين ، وخلافات فى الفروع ليست بدعًا فى الأمة .

وربما كان اختلاف مذاهب أهل السنّة فيما بينهم وبين أنفسهم أكثر ظهورًا فى بعض المسائل من خلافهم فيها مع فقهاء الشيعة .

وإذا لاحظنا أن من الرواة من قيل إنه روى عشرات الآلاف من الحديث

عن الإمام ، تجلّت كفاية التراث الموثوق به عند الشيعة لحاجات الأمة .

وإذا لاحظنا توثيق الشافعى ومالك وأبى حنيفة ويحيى بن معين وأبى حاتم والذهبى للإمام الصادق – وهم واضعو شروط المحدّثين وقواعد قبول الرواية وصحة السند – فمن الحق التقرير بأن حسبنا أن نقتصر على التفتيش عن رواة السنّة عن الإمام الصادق .

والشيعة يكفيهم أن يصلوا بالحديث إلى الإمام . لا يطلبون إسنادًا قبل الإمام جعفر . بل لا يطلبون إسنادًا قبل الأئمة عمومًا ، لأن الإمام بين أن يكون يروى عن الإمام الذى أوصى له ، وبين أن يكون قرأ الحديث فى كتب آبائه – إلى ذلك فإن ما يقوله سنّة عندهم . فهو ممحّص من كل وجه . فليست روايته للحديث مجرّد شهادة به ، بل هى إعلان لصحته .

وإذ كان ما رواه الصادق ، رواية الباقر ورواية السجّاد عن الحسين عن الحسن أو عن علىّ عن النبى ، فهذا يصحح الحديث على كل منهج فالثلاثة الأخيرون من الصحابة المقدمين . يروون عن صاحب الرسالة ، إذ يروى الحسن والحسين عن علىّ عنه .

ولا مرية كان منهج علىّ ومن تابعه فى التدوين خيرًا كبيرًا للمسلمين ، منع المساوئ المنسوبة إلى بعض الروايات ، وأقفل الباب دون افتراء الزنادقة والوضّاعين . فالسبق فى التدوين فضيلة الشيعة . ولما أجمع العلماء بعد زمان طويل على الالتجاء إليه كانوا يسلّمون بهذه الفضيلة – بالإجماع – لعلىّ وبنيه .

والسنّة شارحة للكتاب العزيز . وهو مكتوب بإملاء صاحب الرسالة . فهى كمثله حقيقة بالكتابة .

إنما كان المحدثون من أهل السنّة فى القرون الأولى مضطرين لسماع لفظ الحديث من الأشياخ ، أو عرضه عليهم ، لأن السنن لم تكن مدوّنة . فكانت الرحلة إلى أقطار العالم لتلقى الحديث على العلماء وسيلتهم الأكيدة ولم يغير ذلك النظر انتشار التدوين فى نهاية القرن الثانى ومنتصف الثالث ، وكثرة الحديث

المدون فى المسانيد والمجاميع والصحاح التى ألفت بعد تلك الفترة ، ومنها مسند أحمد بن حنبل (٢٤١) حوى ثلاثين ألفًا دون المكرر . اختارها من ثلاثة أرباع مليون جمعها من أفواه العلماء من أقصى الأرض وأدناها ، وحدث بها تلاميذه لينقلوها إلى الأجيال التالية .

وكان فى أواخر أيامه يستوثق لنفسه فيروى للناس الحديث ويطلب المسند يقرأ فيه .

ثم جاءت أجيال تأخذ الحديث فى الصحف الموثوق بصحة صدورها من صاحبها دون أن يرتحل إليه . وهذا ما أطلقوا عليه الوجادة - « لفظ مولد من « وجد » غير مسموع من العرب » يقولون : وجدنا بخط فلان . وفى القرن الرابع اعتبر ابن يونس الصفدى (٣٤٧) امامًا حافظًا للحديث وإن لم يرحل .

* * *

قلنا فى كتابنا « أحمد بن حنبل إمام أهل السنة»[١]: « والبعض من المحدثين لم يكونوا يروون عن الإمام جعفر الصادق لأنه يحدّث بما قرأه فى الكتب .. سئل أبو بكر بن عياش « وهو من أوّل أشياخ أحمد » : « لماذا لم تسمع من جعفر وقد أدركته ؟ قال : سألناه عما يحدث من الأحاديث أشىء سمعته ؟ قال : لا . لكنها رواية رويناها عن آبائنا»..» وعقبنا ذلك بقولنا :«والشافعى[٢]ويحيى ابن معين[٣] متفقان على توثيقه . وهو شيخ مالك وليس بعد هؤلاء أدلة على جواز

---

(١) أحمد بن حنبل امام أهل السنة - للمؤلف طبعة دار المعارف ص ٢٠٦ .

(٢) يذكر ابن النديم فى الفهرست « وكان الشافعى شديدًا فى التشيّع . ذكر له رجل يوما مسألة فأجاب فيها . فقال له : خالفت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . فقال له أثبت لى هذا عن علىّ بن أبى طالب حتى أضع خدّى على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولى إلى قوله » .

وحضر الشافعى ذات يوم مجلسًا لأحد الطالبيين فقال : « لا أتكلم فى مجلس يحضره أحدهم . هم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل » .

(٣) يقول فيه أحمد بن حنبل « كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس بحديث » وهو من آباء علوم الحديث . ومؤلفاته مراجع فيها - وهى علوم أوصلها الحاكم النيسابورى إلى اثنين وخمسين علمًا وأوصلها النووى إلى خمسة وستين .

طريقة الإمام جعفر مع علمه الضخم فى كل باب » .

وفى كتابنا « الإمام الشافعى »[1] أجملنا الكلام عن موضع الإمام من الإسلام كله فى كلمات : « الإمام جعفر .. يمثل صميم الإسلام .. يجتمع فى نسبة النبى عليه الصلاة والسلام وأبو بكر وعلىّ . وهو إمام فى الدين والفقه وبحر فى العلوم الطبيعية » .

وهذا البحر ، والقطعة من الإسلام والمسلمين الثلاثة الأوّلين – بل الأربعة الأوّلين وفيهم أم المؤمنين خديجة – إمام يهتدى بهديه واجتهاده أئمة أهل السنّة كافة . أما الشيعة الإمامية ، فقول الإمام المعصوم يجرى عندهم مجرى قول النبى من كونه حجة على العباد . ولقد توسع علماؤهم فى اصطلاح السنة إلى ما يشمل « قول كل واحد من المعصومين وفعله وتقريره » . فالأئمة المعصومون ليسوا ، بهذه المثابة ، من قبيل رواة السنن ، بل هُم منصوبون من الله تعالى ، على لسان النبى ، لتبليغ الأحكام عن طريق الإلهام ، كالنبى بطريق الوحى إليه ، وهو خاص به ، أو عن طريق التلقى من المعصوم الذى يسبق .

أما فعل المعصوم فدليل على الإباحة . وأما تركه فدليل على عدم الوجوب .

وتآليف الإمام الصادق كثيرة . منها رسالة فى شرائع الدين . ووصاياه للإمام الكاظم . ورسالة فى الغنائم ووجوب الخمس ، وتوحيد المفضل ، وكتاب الأهليلجة ، وكتاب مصباح الشريعة ، وكتاب مفتاح الحقيقة ، ورسالة إلى أصحابه ، ورسالة إلى أصحاب الرأى والقياس . ورسالة لمحمد بن النعمان . وأخرى لعبد الله بن جندب . ورسالة فى وجوه المعايش للعباد ووجوه إخراج الأموال . ورسالة فى احتجاجه على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق ، ورسالة حكم قصيرة .

والرسالتان المشار إليهما عملان أساسيان فى الاقتصاد والاجتماع ، يدلّان على منهاج الإمام فى صلاح الدنيا بالعمل والعبادة معًا .

وثمة الرسائل العلمية المقترنة بجابر بن حيان .

---

(١) الإمام الشافعى ناصر السنّة وواضع الأصول – طبعة دار المعارف ص ١٣١ .

أما كتاب الجفر المنسوب إلى الإمام الصادق - فيقول عنه ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٣) (١٣٣٢ - ١٤٠٦) : « واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هرون بن سعيد البجلى - وهو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص . وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم . وكان مكتوبًا عند جعفر فى جلد ثور صغير فرواه عنه هرون البجلى وكتبه وسمّاه الجفر باسم الجلد الذى كتب عليه ؛ لأن الجفر فى اللغة هو الصغير . وصار هذا الاسم علمًا على الكتاب عندهم . وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب المعانى مرويّة عن جعفر الصادق . وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه . وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل . ولو صحّ السند إلى جعفر الصادق لكان نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه . فهم أهل الكرامات . وقد صحّ عنه أنه كان يحذّر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصبح كما يقول » .

والروايات متضافرة على أن الجفر غير « الجامعة » . والبعض يقول : إن الجفر من مؤلفات علىّ أملاه عليه النبى[1] .

وهو جفران : الأبيض وهو وعاء من أدم فيه علوم الأنبياء والوصيين والذين مضوا من علماء بنى إسرائيل . والأحمر فيه علم الحوادث والحروب .

* * *

كان تلاميذ الصادق مدونين كبارًا ، فلقد عاشوا فى عصر نهضة علمية كبرى أعجب بها العالم ، تبارت فيها يراعات المدوِّنين . ودارت عجلات التدوين كهيئة

---

(١) يقول ابن قتيبة عن الجفر فى « أدب الكاتب » إن الإمام الصادق كتبه ، وإن فيه كل ما يحتاجونه إلى يوم القيامة .

وإلى هذا الجفر ، واحتوائه على كل شىء ، يشير أبو العلاء المعرى فى شعره :

لقد عجبوا لآل البيت لما أتاهم علمهم فى جلد جفر
فمرآة المنجم وهى صغرى تريه كل عامرة وقفر

وربما نسبوا من أجل ذلك إلى الإمام علوم كشف الغيب أو النجامة .

ما دارت عجلات الطباعة عند ظهور المطبعة . بدأها عمر بن عبد العزيز على رأس القرن إذ أمر بتدوين السنّة . وتابعها علماء الأمة من أهل السنّة .

ومن بعد وفاة الصادق فى عام ١٤٨ دوّن أربعة آلاف من التلاميذ فى كلّ علومه ، ومن جملتها ما يسمى « الأصول الأربعمائة » . وهى أربعمائة مصنّف لأربعمائة مصنف من فتاوى الصادق . وعليها مدار العلم والعمل من بعده . وخير ما جمع منها كتب أربعة هى مرجع الإمامية فى أصولهم وفروعهم إلى اليوم . وهى « الكافى » « ومن لا يحضره الفقيه » « والتهذيب » « والاستبصار » .

والكافى – للكلينى أبى جعفر محمد بن يعقوب الكلينى (٣٢٩) – أعظمها وأقومها ، وأحسنها وأتقنها . فيه ١٦١٩٠ حديثًا ألّفه الكلينى فى عشرين سنة ..

وأما كتاب من لا يحضره الفقيه ، فوضعه ابن بابويه القمى – محمد بن على ابن موسى بن بابويه القمى[1] الملقب « بالصدوق » – « دخل بغداد سنة ٣٥٠ ومات بالرى سنة ٣٨١ » . وفيه ٥٩٦٣ حديثًا . وهذا الكتاب أهم مؤلفاته مع أنه ألف ثلاثمائة كتاب .

وأما « التهذيب » « والاستبصار » فوضعهما بعد نحو قرن محمد بن الحسن ابن على الطوسى (٤٦٠) الملقب « شيخ الطائفة » . وكان فقيهًا فى مذهبى الشيعة وأهل السنة .

وفى التهذيب ١٣٥٩٠ حديثًا وفى الاستبصار ٥٥١١ حديثًا .

دخل الطوسى بغداد سنة ٤٠٨ واستقرّ بها فى أيام الشيخ المفيد ، محمد ابن النعمان (٣٣٦ – ٤١١) صاحب شرح عقائد الصدوق وأوائل المقالات . ونحو مائتى مؤلف .

وتلمذ الطوسى بعد موت الشيخ المفيد للشريف المرتضى فنجب فى مدرسة الشرف ، وفى « دار العلم » التى أنشأها ، وكان يجرى عليه اثنى عشر دينارًا فى الشهر طوال ملازمته له حتى وفاة المرتضى . وانتفع بكتب المرتضى والكتب التى

---

(١) نسبة إلى مدينة قم فى ايران وهى أقدم المدن التى بدأ فيها الشيعة الإمامية فى ايران وقد نشأت على أيدى جماعة من الناجين من جيش ابن الأشعث (٨٣) .

حوتها مكتبته . فألّف فى كلّ علوم الإسلام . واجتهد الاجتهاد المطلق . فكان حجّة فى فقه الشيعة والسنّة .

ومن أجلّ آثاره تدريسه فى مجالسه ، وأماليه « بالنجف الأشرف » فى جوار مشهد أمير المؤمنين علىّ . وبهذا افتتح عصر العلم بالنجف الأشرف فصار صنوًا للأزهر الأغر – الذى أقامته دولة من دول الشيعة – والمعهدان هما اللذان حفظا علوم الإسلام .

فالطوسى ، والشريفان الرضى والمرتضى ، والشيخان المفيد والصدوق ، والكلينى ، قد وصلوا ما انقطع من التأليف منذ عصر الإمام الصادق حتى منتصف القرن الخامس ، ليستمر التيار فى التدفق .

والشريفان فى مدرسة جدّهما صنوان . أبوهما أبو أحمد الموسوى « نسبة إلى جدّه الإمام موسى الكاظم » . وفيه قول ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة للشريف الرضى : كان أبوه أحمد جليل القدر عظيم المنزلة فى دولة بنى العباس وبنى بويه . ولقب « بالطاهر ذى المناقب » ولقبه أبو نصر بن بويه « بالطاهر الأوحد » . ولى نقابة الطالبيين عدة دفعات . كما ولى النظر فى المظالم . وحجّ بالناس مرارًا على الموسم .

عاش أبو أحمد طوال القرن الرابع (٣٠٤ – ٤٠٠) وكان يستخلف على الحجّ ولديه « الرضى » « والمرتضى » .

والشريف الرضى (٣٥٨ – ٤٠٦) هو شاعر العربية الشهير . وجامع « نهج البلاغة » الأشهر ، من خطب أمير المؤمنين علىّ . تولى نقابة « الطالبيين » فى حياة أبيه ومن بعده . وتولى النيابة عن الخليفة العباسى .

فهذه ولاية ينفرد بها فى التاريخ ، تجمع بين نقابة الطالبيين وبين نيابة الخلافة السنية .

وللشريف الرضى تآليف عظيمة فى تفسير القرآن منها :

١ – تلخيص البيان فى معجزات القرآن .

٢ – حقائق التأويل ومتشابه التنزيل .

٣ - معانى القرآن .
كذلك له .
٤ - مجازات الآثار النبوية .
٥ - خصائص الأئمة .

أما الشريف المرتضى (٤٣٦) فيقول عنه الثعالبى فى « يتيمة الدهر » - وهما متعاصران - « انتهت الرياسة اليوم ببغداد إلى المرتضى فى المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم . وله شعر نهاية فى الحسن . ومؤلفاته كثيرة . منها أمالى المرتضى - الشافى - تنزيه الأنبياء - المسائل الموصلية الأولة - مسائل أهل الموصل الثانية - مسائل أهل الموصل الثالثة - المسائل الديلمية - المسائل الطرابلسية الأخيرة - المسائل الحلبية الأولة - المسائل الجرجانية - المسائل الصيداوية - وتآليف أخرى كبيرة فى الفقه والقياس ورفضه . وقد شرح تلميذه الطوسى أكثر من مؤلف له » .

ومن أعظم آثاره إنشاء « دار العلم » ببغداد ورصده الأموال عليها وإجراؤه العطاء على التلاميذ وإطعامهم وإسكانهم . وكان يتبع « دار العلم » هذه مكتبته التى تحوى أكثر من ثمانين ألف مجلد .

وحسبه أن يكون الطوسى من تلاميذه .

وفى آثار هذا السلف العظيم تتابع ركب العلماء والمؤلفين الفحول يخلدون فقه الإسلام .

مشيخة العلماء :

كان مع الكتب التى آلت عن علىّ ومعاصريه ، مؤلفات ، كبيرة أو صغيرة ، وضعها من جاءوا بعده ، وسير لهذا الثبت الضخم من شيعته من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين . فهذا هو التراث التاريخى للشهداء وأشياع الشهداء . لا تكف الأمة عن ترديده ، جهرةً وخفية ، يتصدّرهم الصحابة العظماء ، وإليك بعض الأسماء :

سلمان الفارسى « والذى يطلق عليه سلمان المحمدى » . وأبو ذر « أصدق

الناس لهجة » . وعمار الذى « تقتله الفئة الباغية » وهو فى التسعين يحارب مع علىّ . والعباس بن عبد المطلب . وأبو أيوب الأنصارى . والمقداد بن الأسود الكندى الذى قال لعلى يوم بيعة السقيفة : « إن أمرتنى ضربت بسيفى وإن أمرتنى كففت » ، قال : « اكفف » . وخزيمة ذو الشهادتين . وأبو التيهان . وعبد الله والفضل ابنا العباس . وبلال بن رباح . وهاشم بن عتبة المرقال . وأبان وخالد ابنا سعيد بن العاص . وأبى بن كعب سيد القراء . وأنس ابن الحرث بن نبيه . وعثمان وسهل ابنا حنيف . وبريدة . وحذيفة . وقيس ابن سعد بن عبادة رئيس الأنصار . وهند بن أبى هالة - أمه أم المؤمنين خديجة - وجعد بن هبيرة المخزومى - أمه أم هانئ بنت أبى طالب - وجابر ابن عبد الله الأنصارى .

وسيجرى فى آثار الصحابة التابعون لهم وتابعو التابعين . فيضيفون إلى التراث العظيم آثار رجال عظماء منهم ، من أشياع علىّ ، الأحنف بن قيس . سويد بن غفلة . الحكم بن عيينة . سالم بن أبى الجعد . علىّ بن أبى الجعد : السعيدان . ابن جبير وابن المسيب[1] . يحيى بن نظير العدوانى .

الخليل بن أحمد الفراهيدى مؤسس علم العروض . أبو مسلم معاذ ابن مسلم الهراء مؤسس علم الصرف .

وفى مدرسة التابعين هذه برز أبو هاشم « عبد الله بن محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين » . وأبو هاشم أوّل من تكلم فى علم الكلام . ومن بعده

---

(١) سعيد بن جبير هو الشهيد الوحيد الذى قتل من الرعب قاتله ! سأله الحجاج وهو يقدمه للقتل : أى قتلة تشاء ؟ فأجابه :

« اختر أنت فالقصاص أمامك » . ذلك أن القصاص قتل بقتل . فكان الحجاج بعد استشهاد سعيد يهبّ من نومه فزعًا وهو يقول : مالى ولسعيد بن جبير !! ثم مات بعده بشهر . مات فى رمضان وسعيد فى شعبان سنة ٩٥ .

ورفض ابن المسيب أن يبايع لولدى عبد الملك بن مروان - الوليد وسليمان - وتمسك برأيه فأخذوه ليقتلوه ، ثم اكتفوا بضربه بالسياط وجردوه من ثيابه وطافوا به .

ورفض أن يزوج بنته للوليد بن عبد الملك ، وهو ولىّ عهد عبد الملك ، وآثر أن يزوجها تلميذا فقيرا من تلاميذه .

نشأت مدرسة المعتزلة يتزعمها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . وبأبى هاشم تبدأ مدرسة المتكلمين من الشيعة .

ومن جيل التابعين هشام بن محمد بن السائب الكلبى وأبو مخنف الأزدى المؤرخان .

ويتوالى موكب العلم العظيم من عهد علىّ . وتتعالى أصوات الدعاة العظماء للمذهب الشيعى ، كالنابغة الجعدى : شهد صفين مع أمير المؤمنين ، وله فيها أشعاره المشهورة ، وكان معه عروة بن زيد الخيل ، ولبيد بن ربيعة ، وكعب ابن زهير صاحب قصيدة « بانت سعاد » . ومن بعدهم : الفرزدق ، وكثيّر عزّة من شعراء القرن الأوّل ، ثم الكميت ، وقيس بن ذريح ، والسيد الحميرى ، ودعبل الخزاعى ، وأبو تمام ، والبحترى ، وديك الجن ، والحسين بن الضحاك وابن الرومى ، والأشجع السلمى[1] ...

---

(١) من الطبيعى أن يكون كثرة الشعراء شيعة . فالتشيع ضمير الجماعة وصوتها الصداح . والضمير الإسلامى كله ، يثقله أو يعذبه ، أو يهيج قرائحه ، ما أصاب أهل البيت من ظلم الدول . ويخفف عنه ما يعقده حول أهل البيت من أمل . لهم وله .

وكلما أحس الشعب ظلمًا طلب الرجاء والاقتداء بأبناء النبى ﷺ - وبهذا انضاف إلى الثبت الحافل السابق ذكره : ابن هانئ الأندلسى . ومهيار الديلمى . وأبو فراس الحمدانى . والناشئ الصغير . والناشئ الكبير . وكشاجم . وأبو بكر الخوارزمى . والبديع الهمذانى . والطغرائى . والسرى الرفا . وعمارة اليمنى .

بل أصبح ثناء على الشاعر أن يقال « يترفض فى شعره » أى يتشيع ، وللمتنبى وأبى العلاء شعر شيعى .

وأما أشراف العلويين فمنهم الشريف الرضى والشريف المرتضى . وكان الشريف على الجمانى يقول : « أنا شاعر وأبى شاعر وجدّى شاعر » ومنهم الشريف الشجرى .

بل كان من الأمويين متشيعون : أبان بن سعيد بن العاص وخالد بن سعيد بن العاص وعمر ابن عبد العزيز . وعبد الرحمن أخو مروان بن الحكم . ومروان بن محمد السروجى الذى يقول :

يابنى هاشم بن عبد مناف أنا منكم بكل مكان
ولئن كنت من أمية إنى لبرئ منهم إلى الرحمن

وأبو الفرج الأصفهانى (٢٨٤ - ٣٥٦) جدّه السابع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى مروان وأبو الفرج صاحب « الأغانى » ومقاتل الطالبيين .

ومن العباسيين شيعة : المأمون ، والمعتضد . وأحمد بن الموفق . ومن الأيوبيين كان الأفضل =

وعلم أهل البيت علم كل الأمة . فأمير المؤمنين علىّ فى قمة السند عند الجميع من سنّة وشيعة . لكن الذين ينقلون عنه - من الشيعة أو أهل السنة - محل تفاوت .

فالشيعة لا يقبلون كلمة ممن حارب عليًّا أو ظلمه من الصحابة أو التابعين .

وأهل السنّة ، مع اختلافهم من ناحية شروط الرواية والراوى ، لا يقبل بعضهم مالا يصل إليه بطريقته ، ويتشكك بعضهم فى بعض ما يرويه الشيعة لأمور تتعلق بالسند أو بالمتن أو براويه من الشيعة .

وفى أسناد الشيعة فحول - بكل المقاييس - فى العدالة والنزاهة والعلم . تتردد أسماؤهم عالية فى « كتب الحديث » والصحاح ، التى يقوم عليها العلم عند أهل السنّة - والحق أن « جوهر الحديث النبوى » واحد عند هؤلاء وأولاء ، مع تعدد الطرق .

ومن هؤلاء :

- الحارث بن عبد الله الهمدانى (٦٥) صاحب أمير المؤمنين علىّ وخاصته . حديثه فى كتب السنن الأربعة : قال ابن سيرين « كان من أصحاب ابن مسعود خمسة يؤخذ عنهم أدركت أربعة منهم وفاتنى الحارث ، فلم أره . وكان يفضل عليهم وكان أحسنهم . ويختلف فى هؤلاء أيهم أفضل : علقمة ومسروق وعبيدة » .

- علقمة بن قيس النخعى (٦٢) عم الأسود وأخويه أبناء يزيد . كان من أولياء آل محمد . والشهرستانى يعده من الشيعة فهو قد شهد صفين مع أمير المؤمنين . واستشهد فيها أخوه أبى . وخضب علقمة سيفه من دماء الخوارج .

= ابن صلاح الدين . ومن الفلاسفة متشيعون : الكندى فيلسوف العرب (٢٤٦) والفارابى (٣٣٩) وابن سينا (٤٢٨) .

ومن الوزراء المشهورين : أبو سلمة الخلال - قتله السفاح - ويعقوب بن داود . حبسه المهدى وأفرج عنه الرشيد - والفضل والحسن ابنا سهل - قتل المأمون الأوّل وأصهر إلى الثانى ليستلّ سخيمته . وبنو طاهر الخزاعى . ووزراء المأمون . وأبو دلف العجلى والصاحب بن عباد إلخ .

ولم يزل عدوًّا لمعاوية حتى مات . ومكانة علقمة عند أهل السنّة من المسلمات : كان عنده كل علم ابن مسعود .

وفى بيت علقمة نشأت مدرسة النخعيين . وفيها نجب إبراهيم بن يزيد واسطة العقد فى فقه العراق .

– ظالم بن عمرو قاضى البصرة لعلىّ « أبو الأسود الدؤلى » (٦٩) . احتج به أصحاب الصحاح الستة . وهو واضع علم النحو . ومكان النحو من اللغة ، ومكانة اللغة من القرآن والسنّة وكل علوم الأمة ، يضعان أبا الأسود فى أعلى مكان .

– عبد الله بن شداد بن الهاد (٨١) . أمه سلمى بنت عميس أخت أسماء أم عبد الله بن جعفر ومحمد بن أبى بكر ويحيى بن على .

وهو أخو عمارة بن حمزة لأمه . وحمزة بطل أحد وشهيدها .

روى عن علىّ وأم المؤمنين عائشة وميمونة .

خرج مع القراء أيام ثورة ابن الأشعث فقتل يوم دجيل .

احتج بحديثه أصحاب الصحاح وسائر الأئمة أصحاب المسانيد .

– سليمان بن صرد الخزاعى (٦٥) كبير الشيعة فى عصره . وبطل من أبطال صفين . يحتج به المحدثون . وحديثه عن رسول الله بلا واسطة ، أو بواسطة الصحابى جبير بن مطعم ، موجود فى صحيحى البخارى ومسلم . وحديثه فى غيرهما كثير .

وهو أمير التوابين الخارجين للثأر لدم الحسين . وكانوا أربعة آلاف ساروا إلى عبيد الله بن زياد وهو فى سبعين ألفًا ، فتلاقوا فى موضع يقال له « عين الوردة » حيث استشهد سليمان عن ثلاثة وتسعين عامًا وهو يحارب جيش عبيد الله بن زياد .

أما عبيد الله بن زياد فقتله إبراهيم بن الأشتر النخعى بيده .

– صعصعة بن صوحان العبدى : أسلم فى عهد النبى ولم يره . وهو من مشاهير خطباء العربية الذين خلدت بلاغتهم ، فهو تلميذ فى مدرسة

أمير المؤمنين . شهد معه « الجمل » ومعه أخواه زيد وسيحان . وكانت الراية بيد سيحان يوم ذاك ، فقتل ، فأخذها زيد فقتل ، فأخذها صعصعة وانتصر . ثم شهد صفين مع أمير المؤمنين .

روى عن علىّ وابن عباس . ونفاه المغيرة بن شعبة والى العراق بأمر معاوية ، إلى الجزيرة فى البحرين فمات – احتج به النسائى .

– عمرو بن وائلة – أبو الطفيل – (١١٠) كان صاحب راية المختار ابن عبيد الثقفى . وهو آخر الصحابة موتًا . قدم على معاوية يومًا فقال له : كيف وجْدك على خليلك أبى الحسن ؟ « يقصد أمير المؤمنين عليًّا » فأجاب : كوجْد أم موسى على موسى . وأشكو إلى الله التقصير .

قال معاوية : كنت فيمن حصر عثمان ؟ قال : لا ولكن فيمن حضره .

قال معاوية : فما منعك من نصره .

قال : فما منعك أنت من نصر عثمان ؟ كنت فى أهل الشام وكلهم تابع لك فيما تريد .

قال معاوية : أو ما ترى طلبى لدمه نصرة له ؟

قال : إنك لكما قال أبو جعف :

لألفينك بعد الموت تطلبنى وفى حياتى ما زودتنى زادا

وحديثه فى صحيح مسلم . روى عن رسول الله وعن علىّ وابن مسعود وحذيفة بن اليمان وحذيفة بن سعد وابن عباس وعمر ومعاذ .

– إبراهيم بن يزيد النخعى (٩٥) أبوه يزيد بن عمرو بن الأسود النخعى . وأخواله الأسود وإبراهيم وعبد الرحمن أبناء يزيد بن قيس . يؤلفون – مع علقمة بن قيس – مدرسة النخعيين . وابن قتيبة يعتبر إبراهيم من الشيعة .

وروايته فى الصحيحين . وعنه يروى حماد بن أبى سليمان . وعن حماد يروى أبو حنيفة .

ومن فحول القرن الثانى كثيرون نختار منهم بعض الأسماء :

– عطية العوفى (١١١) كان أبوه من أصحاب علىّ . وعلىّ هو الذى أعطاه اسمه . ضربه الحجاج ٤٠٠ سوطا لامتناعه عن سبّ علىّ « وحدّ الجلد مائة ! » له ذرية نبلاء من الشيعة . منهم الحسين بن الحسن بن عطية الذى ولى القضاء .

يحتج به أبو داود والترمذى .

– جابر بن يزيد الجعفى (١٢٧) قالوا إنه كان يؤمن بالرجعة . وأحاديثه فى مسلم . وروى عنه النسائى والترمذى وأبو داود وأخذ عنه شعبة . ومن أجل قولهم عنه ووثاقته يروى ابن عبد الحكم عن الشافعى : « أن سفيان (ابن عيينة) قال لشعبة : لئن تكلمت فى جابر لأتكلمن فيك » .

– شعبة بن الحجاج (١٦٠) أوّل من فتش بالعراق عن أمر المحدثين .

– عبد الرزاق بن همام (٢١٠) شيخ أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وإسحق بن راهويه . سئل يحيى ، وهو أستاذ الجرح و التعديل ، عن الرواية عن عبد الرزاق مع تشيّعه . قال : لو ارتدّ عن الإسلام ما تركنا حديثه .

وكان عبد الرزاق يتكلم فى عثمان . وذكر أمامه معاوية مرة فقال : لا تقذروا مجالسنا بذكر ولد أبى سفيان[1] .

– الأعمش – سليمان بن مهران الأسدى الكوفى – (١٤٨) . يحتج به أصحاب الصحاح الستة . ويروى عنه شعبة وجرير والسفيانان « الثورى إمام الكوفة وابن عيينة إمام المدينة » . بعث إليه هشام بن عبدالملك ليكتب له مناقب عثمان ومساوئ علىّ . فأخذ القرطاس وأدخلها فى فم شاة وقال

---

(١) سأل الترمذى أحمد بن حنبل عن عائشة والزبير وطلحة فأجاب : « من أنا حتى أقول فى أصحاب رسول الله ﷺ ! كان بينهم شىء الله أعلم به » . فأحمد لا يسيغ قدحًا فى الصحابة لورعه . وهم بأعمالهم وآرائهم أصل فى أصوله .. حتى إنه ليبعث إلى يحيى بن معين يقول له : هو ذا تكثر الحديث عن عبد الله بن موسى العبسى وقد سمعته تناول معاوية . وقد أكثر الحديث عنه . فقال يحيى للرسول « اقرأ على أبى عبد الله أحمد بن حنبل السلام وقل له : أنا وأنت سمعنا عبد الرزاق « بن همام » يتناول عثمان ابن عفان . فاترك الحديث عنه . فإن عثمان أفضل من معاوية » .

ولم يترك أحمد حديث عبد الرزاق .

للرسول : قل له : هذا جوابه . قال الرسول : لقد أقسم أن يقتلنى إن لم آت بجوابك . فكتب : « أما بعد ، فلو كان لعثمان مناقب أهل الأرض ما نفعتك ولو كان لعلّى مساوئ أهل الأرض ماضرّتك . فعليك بخويصة نفسك والسلام » .

– ابن لهيعة (١٧٤) قاضى مصر . يقول عنه سفيان « عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع » .

– شريك بن عبد الله النخعى القاضى (١٧٧) . كان يقول : « علىّ خير البشر فمن أبى فقد كفر » . سأله الخليفة المهدى يومًا : ماذا تقول فى علىّ ابن أبى طالب ؟ قال : ما قال فيه جداك العباس وعبد الله . قال : ما قالا ؟ قال شريك : أما العباس فمات وعلىّ عنده أفضل الصحابة . وكان يرى المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل . وما احتاج هو إلى أحد حتى لحق بالله . وأما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين . وكان فى حروبه سيفا منيعًا وقائدًا مطاعًا . فلو كانت إمامته على جور كان أوّل من يقعد عنها أبوك لعلمه وفقهه فى أحكام الله . ولم يمض طويل وقت حتى عزل شريك[1] .

---

(١) ربما كان فى هذه الفترة الحرجة ما قيل من أنه دخل يومًا على المهدى . فقال المهدى : علىّ بالسيف والنطع . قال شريك : ولم ياأمير المؤمنين ؟ قال المهدى : رأيتك فى منامى كأنك تطأ بساطى وأنت معرض عنى . فقصصت رؤياى على من عبرها فقال لى : يظهر لك طاعته ويضمر معصيته . قال شريك : والله ما رؤياك برؤيا إبراهيم الخليل . ولا معبرك بيوسف عليه السلام . أفبا لأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين ؟ فاستحى المهدى وقال : اخرج عنى وأبعده .

وكان الحقد على أمير المؤمنين علىّ غذاءً يوميا على موائد بنى العباس . لا تخلو منه واحدة حتى ولو كانت مائدة لخليفة يتشيع هو المأمون . أنبأه عمه إبراهيم بن المهدى – وكان شديد الانحراف عن علىّ – أنه رأى فى المنام عليًا فمشيا حتى جاءا قنطرة فتقدم لعبورها فأمسكه إبراهيم وقال :

أنت تدعى هذا الأمر بامرأة « يقصد أمر الخلافة وفاطمةالزهراء وأن عليًا يتقدم بزواجه منها » فما رأيت له بلاغة فى الجواب .. مازادنى على أن قال : سلامًا سلاما .

فنهره المأمون على ما افتضح من عقله الباطن فى صورة حلم . قال :

لقد أجابك أبلغ الجواب . عرف أنك جاهل لا يجاب مثلك . قال الله تعالى : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) .

ولقد نهره أحمد بن دؤاد مرة أخرى إذ لم يتوقر فى مجلس القضاء فقال له : « ياإبراهيم إذا نازعت =

- خالد بن مخلد القطوانى (٢١٣) شيخ البخارى . قال عنه أبو داود . صدوق ولكن يتشيع !
- هشيم بن بشير أوّل أشياخ أحمد بن حنبل المحدثين (١٦٣) .
- عبد الله بن موسى العبسى (٢٦٣) من مشايخ البخارى .
- معروف الكرخى (٢٠٠) زعيم الصوفية .

وصف ابن حنبل معروفًا لابنه عبد الله بن حنبل عندما سأله : هل عنده علم ؟ فقال : كان عنده رأس الأمر كله . تقوى الله .

التلاميذ من الشيعة :

صنّف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتابًا جمع فيه رجال الصادق ورواة حديثه وأنهاهم إلى أربعة آلاف . وكتب من أجوبته أربعمائة مصنف .

وإنما أمكنه من ذلك انقطاعه المخلص للتعليم عامة وتعليم السنن والفقه والتفسير خاصة ، للشيعة ولغيرهم .

كان الرواة من تلامذته ومن غيرهم - كما يقول اليعقوبى - يروون عنه فيقولون : قال « العالم » .

وكثيرًا ما جلس فى مجلس الإمام المخضرمون إلى جوار الجيل الجديد من المتفقهة ، ومن الأوّلين قيس الماصر ، وأبان بن تغلب . ومؤمن الطاق .

وكثيرًا ما درب التلاميذ بين يديه ليصنعوا على عينيه : يفد على المدينة وافد من الشام فيغدو إلى المجلس يناقشهم فى « وجوب تنصيب الإمام » فيتجارون فى جداله حتى يسلم لهم . ثم يعلق الإمام الصادق على طريقتهم أو قدرتهم . فيقول لحمران بن أعين : « تجرى الكلام على الأثر فتصيب » . ثم يلتفت لهشام

= فى مجلس الحكم بحضرتنا امرءًا فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتًا ولا أشرت بيد . وليكن قصدك أمما . وريحك ساكنة . وكلامك معتدلاً ووفّ مجالس الخليفة حقها من التوقير والتعظيم » .

وكان مغنيًا يعربد . نصبه أهله خليفة لمدة عامين فى ثورة على المأمون . ثم عفا عنه المأمون بعد أن ضبطوه يحاول الفرار فى ثياب امرأة .

ابن سالم فيقول له : « تريد الأثر ولا تعرفه » . ويلتفت إلى الأحول « الطاقى » ويقول : « قيّاس روّاغ تكسر باطلاً بباطل . لكن باطلك أظهر » .

ويقول لقيس الماصر « تتكلم وأقرب ما تكون إلى الخبر عن رسول الله . أنت والأحول قفازان حاذقان » .. وأخيرًا يقول لهشام بن الحكم : « ياهشام : لا تكاد تقع . تلوى رجليك . إذا هممت بالأرض طرت . مثلك يكلم الناس . فاتق الزلة .. » .

ولقد يلاحظ المرء من ذلك تعدّد طرقهم وتفاوت علمهم ونفاذ بصر الإمام إلى خصائصهم ، ودوره فى تصويب وتدريب كل منهم . وهو لا يتركهم دون تشجيع : يشير إلى زرارة بن أعين وبريد العجلى وأبى بصير المرادى ومحمد ابن مسلم فيقول : « لولا هؤلاء لانقطعت آثار النبّوة واندرست » . وكان فى أسرة زرارة الحفّاظ المدقّقون يتصدّرهم تلميذا الإمام ، الحسن والحسين ابنا زرارة . والإمام يهب الأسرة جلال الذكرى فى التاريخ فيقول : « لولا أسرة زرارة ونظرائه لانقطعت أحاديث أبى » .

وهو إذ يثنى على أسرة زرارة ، يشجع النظراء ، وربما لا يتركهم الإمام دون تضييف :

فالمستشرق رونلدسن يصوّر بعض مجالس الإمام مع تلاميذه فيقول ما تعريبه : « ومن الوصف الذى نقرؤه عن إكرام جعفر الصادق ضيوفه فى بستانه الجميل فى المدينة ، واستقباله الناس على اختلاف مذاهبهم ، يظهر لنا أنه كانت له مدرسة شبه سقراطية . وقد ساهم تلاميذه مساهمة عظمى فى تقدّم علمى الفقه والكلام . وصاراثنان من تلامذته وهما « أبو حنيفة ومالك » فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية . وأفتوا بالمدينة أن اليمين التى أعطيت فى بيعة المنصور لا تعتبر ، مادامت أعطيت بالإكراه . ويروى أن تلميذًا آخر من تلامذته وهو « واصل بن عطاء » رئيس المعتزلة جاء بنظريات فى الجدل مما أدى إلى إخراجه من حلقة تدريس الإمام جعفر وكان « جابر بن حيان » الكيماوى الشهير من تلامذته أيضا » .

إليك بعض الأسماء :

« أبان بن تغلب » (١٤١) تلميذ زين العابدين والباقر والصادق .

قال له الباقر : « اجلس فى المسجد وأفت الناس . فأنا أحب أن يرى فى شيعتى مثلك » وقال له الصادق : « ناظر أهل المدينة فأنا أحب أن يكون مثلك من رواتى ورجالى » .

كان إذا دخل على الصادق عانقه وأمر بوسادة تثنى له ، وأقبل عليه بكله ، ولما مات قال : أما والله لقد أوجع قلبى موت أبان .

روى عن الصادق ثلاثين ألف حديث . وهو - بهذه المثابة - شاهد على التعاقب والاستمرار والشمول فى علم أهل البيت . يعرف الشيعة بأنهم « الذين إذا اختلف الناس أخذوا بقول علىّ وإذا اختلف الناس عن علىّ أخذوا بقول جعفر بن محمد » فهو القائل فى جعفر بن محمد « ماسألته عن شىء إلّا قال : قال رسول الله » .

وكان إذا جلس بالمسجد تفوضت إليه الحلق . وأخليت له سارية النبى . فيجيئه الناس يسألونه فيجيئهم بمختلف الأقوال . ثم يذكر قول أهل البيت ويورد حججه . ومن أجل هذا المنهج فى التدريس كان الصادق يوصى التلاميذ بأن يعبّوا من منابعه ، يقول لأبان بن عثمان : إيت أبان فإنه سمع عنى ثلاثين ألف حديث فاروها عنه . فهو لا يتردد فى تفضيله حتى ليجعله طبقة بينه وبين سميّه فى الرواية عنه .

وقد احتج بحديثه مسلم بن الحجاج فى صحيحه وأصحاب السنن الأربعة . وروى عنه سفيان بن عيينة شيخ الشافعى . وله كتب شتى منها كتاب فى الأصول .

- ثابت بن دينار (١٥٠) - أبو حمزة الثمالى - تلميذ الصادق والسدى المفسر . يقول فيه الرضا حفيد الصادق : أبو حمزة فى زمانه كلقمان فى زمانه .

اسستشهد بنوه الثلاثة حمزة ونوح ومنصور فى خروجهم مع زيد بن على - روى عنه الترمذى .

– « مؤمن الطاق » – كما يسميه الشيعة – نسبة إلى « طاق المحامل » حيث كان متجره . أو « شيطان الطاق » كما يسميه فقهاء السنة :

هو محمد بن على بن النعمان الأحول . ويقال إن أبا حنيفة هو الذى لقّبه بشيطان الطاق لمناظرة جرت بين الخوارج وبينه أمام أبى حنيفة . والراجح أن خصومه سمّوه كذلك لعبقريته . أما الإمام الصادق فيناديه بعبارة بارعة يرضاها الجميع « ياطاقى » أو يقول : « صاحب الطاق » .

كان مناظرًا لا يشق له غبار . رآه تلميذ آخر يناظر ، وأهل المدينة يضيقون بمناظرته حتى قطعوا آراءه ، وهو لا ينكف عن الجدل . فنبهه على أن الإمام ينهاهم عن الكلام . فالتفت إليه وقال : أو أمرك أن تقول لى ؟ قال : لا . ولكنه أمرنى أن لا أكلم أحدًا . قال : اذهب فأطعه فيما أمرك .

وسمع الصادق بالواقعة ، من التلميذ ، فتبسم . بل هو قال له : إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير . أما أنت إن قصوك لن تطير .

ويروى أنه ناظر زيد بن علىّ فى إمامة الإمام الصادق .

كان أبو حنيفة يتهمه بالرجعة . وهو يتهم أبا حنيفة بالقول بالتناسخ . تلاقيا بالسوق يومًا ومع صاحب الطاق ثوب يبيعه . قال أبو حنيفة أتبيعه إلى حين رجعة ؟ قال : إن أعطيتنى كفيلًا أن لا تمسخ قردا .

ولما مات الإمام الصادق قال له أبو حنيفة : مات إمامك . فأجابه : لكن إمامك لا يموت إلا يوم القيامة . إمامك إبليس !

وله كتاب فى مناظراته لأبى حنيفة .

– أبان بن عثمان بن أحمر البجلى . يروى عن الصادق ثم عن الكاظم ، وله مؤلفات شتى ، وذكره ابن حيان فى الثقات .

وهو على رأس الستة الذين أجمع الشيعة على تصحيح ما يصح عنهم والإقرار بالفقه لهم . وهم : أبان . وجميل بن دراج . وعبد الله بن مسكان . وعبد الله ابن بكير . وحماد بن عيسى . وحماد بن عثمان .

– هشام بن الحكم : (١٧٩) نشأ بالكوفة ودخل بغداد للتجارة واستقر

بها . ولزم الإمام الصادق ثم صار خصيصًا بالإمام الكاظم يقول عنه ابن النديم : هو من جلّة أصحاب جعفر . وهو من متكلمى الشيعة ممن فتقوا الكلام فى « الإمامة » .

عمل مدة من الزمان قيما بمجالس الكلام عند يحيى بن برمك وزير الرشيد .

وكان أوّل أمره من أصحاب جهم بن صفوان ثم انتقل إلى القول بالإمامة فى شبابه . فكان الصادق يدعو له : « لا تزال مؤيدًا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك » .

ونفذ هشام إلى المعتزلة من خلال « النظام » . وظلّ أثره قويًّا فى غير المعتزلة حتى ظهر المذهب الأشعرى .

وهشام هو الذى يقول : ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا إلى من ولّاه الله من سمائه فعزلوه وإلى من عزله الله من سمائه فولّوه « يقصد تبليغ علىّ سورة براءة بدلًا من أبى بكر . وقول جبريل للرسول : لا يؤديها عنك إلا أنتِ أو رجل منك » .

كان إذا قصد إفحام معارضيه لم يثبت أمامه رجل . سمعه الرشيد فى بعض مجالس يحيى بن برمك وكان يحضرها من وراء ستر فقال : « إن لسان هشام أوقع فى نفوس الناس من ألف سيف » .

ولما فتك الرشيد بالبرامكة طلب هشامًا فاختفى . فأخذ به خلقًا كثيرًا ثم أطلقهم بعد أن مات هشام مستترًا .

ولم تكن مجالس المناظرات خالية من الخطر . يسأل هشامًا سائل ذات يوم : « أما علمت أن عليًّا نازع العباس « جدّ الرشيد » – إلى أبى بكر ؟ فأيهما كان الظالم لصاحبه ؟– قال هشام فيما بعد : « قلت فى نفسى : إن قلت العباس بلغ ذلك الرشيد ، وإن قلت عليًّا ناقضت نفسى » – قال هشام : لم يكن فيهما ظالم . قال السائل أفيختصم اثنان .. وهما محقان !! قال هشام : نعم اختصم الملكان إلى داود ، وليس فيهما ظالم . وإنما أرادا أن ينبهاه . كذلك اختصم هذان

إلى أبي بكر ليعلماه ظلمه » . فهو ينجو من المزالق ، ويكرم الرجلين ، ويفضل عليًّا على أبي بكر .

ومن وصية الإمام الصادق له قوله : « ياهشام من أراد الغنى بلا مال ، وراحة القلب من الحسد ، والسلامة فى الدين ، فليفزع إلى الله فى مسألته إن كان له عقل . فمن عقل قنع بما يكفيه . ومن قنع استغنى . ومن لم يقنع لم يدرك الغنى أبدًا .. ياهشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا .. العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه . إن الزرع ينبت فى السهل .. من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه » .

وكان يحذّره من التشبيه والتجسيم ، فلقد كانت تبلغه عنه زلّات فى هذا الشأن . ومع ذلك لا يكفّ عن تشجيعه . فيستعيده رواية ما وقع منه مع عمرو ابن عبيد زعيم المعتزلة . ويستحى هشام . فيقول له الإمام : « إذا أمرتكم بشىء فافعلوا » . فيقول هشام :

« بلغنى ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه فى مسجد البصرة . فعظم ذلك على . فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة وأتيت المسجد ، وإذا بحلقة عظيمة فيها عمرو .. والناس يسألونه .. فقعدت فى آخر القوم على ركبتى . ثم قلت : أيها العالم . إنى رجل غريب . تأذن لى فى مسألة .. قلت : ألك عين ؟ قال : نعم فقلت : ألك أنف ؟ .. ألك لسان ؟ .. ألك أذن ؟ قال : نعم . قلت : ألك قلب ؟ قال : نعم . قلت : فما تصنع به ؟ قال : أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح والحواس . قلت : أو ليس فى هذه الجوارح غنى عن القلب . قال : لا . قلت : لابد من القلب وإلّا لم تستيقن الجوارح ؟ قال : نعم . فقلت : ياأبا مروان . والله تعالى لم يزل جوارحك حتى جعل لها إمامًا يصحح لها الصحيح وتتيقن به مما شكت فيه . ويترك هذا الخلق كلهم فى حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم إمامًا يردّون إليه شكّهم وحيرتهم . ويقيم لك إمامًا لجوارحك تردّ إليه شكك وحيرتك ؟.. فسكت . ثم التفت إلىّ وقال : أنت هشام ابن الحكم » ..

فضحك الإمام وقال : من علّمك هذا ؟ قال : شيء أخذته منك ..
قال : « هذا والله مكتوب فى صحف إبراهيم وموسى » .

وظاهر أن طريقته كانت طريقة الإمام فى استعمال المحسوسات والاعتبار بها فى الإثبات واستعمال العقل بنزاهة فى الاستدلال . وسنعرض لها فيما بعد .

بلغت مؤلفات هشام سبعة عشر مؤلفًا منها كتاب « الإمامة » . كتاب الوصية والردّ على من يطلبها . وكتاب الحكمين .

« جابر بن حيان » – أوّل من استحق فى التاريخ لقب كيميائى ، كما تسميه أوربة المعاصرة . وهو الذى يشير إليه الرازى (٢٤٠ – ٣٢٠) – جالينوس العرب – فيقول : « أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان » . والمؤرخون – إلّا بعضًا من غير المسلمين – متفقون على تلمذته للإمام . وعلى صلته أو تأثره به فى العلم والعقيدة . وأكثرهم على أنه صار بعد موت الإمام من الشيعة الإسماعيلية . يقول فى كتابه الحاصل : (ليس فى العالم شيء إلّا وفيه من جميع الأشياء . والله لقد وبخنى سيدى « يقصد الإمام الصادق » على عملى فقال : والله ياجابر لولا أنى أعلم أن هذا العلم لا يأخذه عنك إلا من يستأهله وأعلم علمًا يقينًا أنه مثلك ، لأمرتك بإبطال هذه الكتب من العلم) .

وكانت كتب رياضة وكيمياء تسبق العصور بجدتها . . قيل إنه أخذ علمه عن خالد بن يزيد ثم أخذ عن الإمام جعفر .

وهو يشير إلى الإمام دائمًا بقوله : « سيدى » ، ويحلف به . ويعتبره مصدر الإلهام له .

يقول فى مقدمة كتابه الأحجار : « وحق سيدى لولا أن هذه الكتب باسم سيدى – صلوات الله عليه – لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد » .

ذكر له المستشرق كراوس Kraus ناشر كتبه فى العصر الحديث أربعين مؤلفًا . وأضاف ابن النديم فى القرن الرابع للهجرة عشرين كتابًا أخرى . وينقل ابن النديم قوله : « ألفت ثلاثمائة كتاب فى الفلسفة وألفا وثلاثمائة رسالة فى صنائع مجموعة ، وآلات الحرب ، ثم ألّفت فى الطّب كتابًا عظيمًا ثم ألّفت كتبًا صغارًا

-وكبارًا ، وألّفت فى الطب نحو خمسمائة كتاب . ثم ألّفت فى المنطق على رأى أرسطاليس . ثم ألّفت كتاب الزيج أيضًا نحو ثلاثمائة ورقة . ثم ألفت كتابًا فى الزهد والمواعظ . وألّفت كتبًا فى العزايم كثيرة حسنة وألفت فى الأشياء التى يعمل بخواصها كتبًا كثيرة . ثم ألفت بعد ذلك نحو خمسمائة كتاب نقضًا على الفلاسفة . ثم ألفت كتابًا فى الصنعة يعرف بكتب الملك . وكتابًا يعرف بالرياض » .

* * *

وتلاميذ الصادق ، المشهورون ، فيما عدا من سلف ذكرهم ، من كبار أهل السّنة أشياخ للفقهاء فى جميع المذاهب منهم : سفيان بن عيينة . وسعيد بن سالم القداح . وإبراهيم بن محمد بن أبى يحيى . وعبد العزيز الدراوردى . وقد روى الشافعى عن كل هؤلاء . وجرير بن عبد الحميد ، وإبراهيم بن طهمان ، وعاصم بن عمر . . بن عمر بن الخطاب . . وأبو عاصم النبيل (٢١٢) شيخ أحمد بن حنبل . وأبو عاصم آخر تلاميذ الصادق وفاة ، وقد روى عنه كتابًا . والكسائى عالم اللغة ، وعبد العزيز بن عبد الله الماجشون زميل مالك فى الفتيا فى موسم الحج ، وعبد العزيز بن عمران . . بن عبد الرحمن بن عوف . وابن جريج إمام مكة . والفضيل بن عياض . والقاسم بن معن . وحفص بن غياث والثلاثة أصحاب أبى حنيفة ، ومنصور بن المعتمر . ومسلم بن خالد الزنجى شيخ الشافعى بمكة . ويحيى بن سعيد القطان .

وإنما أحدثت السياسة الخلافات بين فقهاء السنة والشيعة فأنتجت وجوهًا لخلافات فقهية وحديثية . فوجدنا للشيعة رواةً ليسوا من رواة الكتب التى يتداولها أهل السنة ومنها الصحاح الستة المشهورة . فالشيعة لايقبلون أحاديث من حاربوا عليًّا أو أخطئوا فى حقه .

ومن الناحية الأخرى وجدنا فى بعض كتب الحديث لأهل السنة ، أوصافا للرواة من الشيعة ، تتضح منها جذور هذه الخلافات .

وإليك بعض أمثال :

– كان الشعبى – شيخ المحدثين بالكوفة على رأس المائة الأولى – يكذب الحارث الهمدانى ، صاحب على ، فيسلط الله على الشعبى ثقات أثباتًا من الرواة يستخفون به .

– وأبان بن تغلب نجبة مدرسة السجاد والباقر والصادق . يقول فيه الحافظ السعدى : زائغ مجاهر . ويقول فيه الجوزجانى : زائغ مذموم المذهب . ويقول عنه الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال : « شيعى جلد . ولكنه صدوق . فلنأخذ صدقه وعليه بدعته » .

– وعلى هذا النحو تجد خالد بن مخلد القطوانى (٢١٣) ، وهو من مشايخ البخارى ، يقول عنه ابن سعد إنه كان مفرطًا فى التشيّع . ويقول عنه أبو داود : « صدوق » لكنه يتشيع .

– وتجد تليد بن سليمان . يقول فيه أبو داود – تلميذ أحمد – رافضى يشتم أبا بكر وعمر . فلنا « صدقه » وعليه « بدعته » . لكن ابن حنبل يأخذ عنه . وحسب الرجل شهادة ابن حنبل .

– وجعفر بن سليمان يقول فيه ابن عدى : « أرجو أنه لابأس به » ، فى حين أن أحمد بن حنبل عندما يقال له إن سليمان بن حرب يقول لاتكتبوا حديث جعفر بن سليمان ، يرد أحمد : « لم يكن ينهى عنه إنما كان جعفر يتشيع » فيبين سبب ظلم سليمان له .

– ولقد تجد الراوية يقول بالرجعة ، فيضعفه يحيى بن معين ، أستاذ الجرح والتعديل وزميل أحمد بن حنبل ، لكنك تجد عبد الرازق بن همام يقول بالرجعة ومع ذلك يروى عنه الأعمش وسفيان وشعبة وابن حنبل ويحيى نفسه وسفيان بن عيينة شيخ المحدثين بمكة وأستاذ الشافعى . وأحمد بن حنبل صاحب المسند الأعظم .

– أو تجد زبيد بن الحارث ، يقول فيه الجوزجانى : « كان ممن لايحمد الناس مذاهبهم » . ويضيف : « احتملهم الناس لصدق ألسنتهم فى الحديث » .

لذلك يحتج به أصحاب الصحاح وأرباب السنن ، وكمثلهم الشعبى وإبراهيم ابن يزيد النخعى .

والحافظ بن حجر فى تهذيب التهذيب يقول فى الجوزجانى : « وأما الجوزجانى فلا عبرة بحطه على الكوفيين فالتشيّع فى عرف الأقدمين هو . . أن عليًّا كان مصيبًا فى حروبه وأن مخالفه مخطئ . مع عدم تقديم الشيخين . وربما اعتقد بعضهم أن عليًّا أفضل الخلق بعد رسول الله . وإذا كان معتقد ذلك ورعًا دينًا ، صادقًا ، مجتهدًا ، فلا تردّ روايته » .

وهذا هو الذى جعل روايات الرواة الذين ذكرناهم ، وأمثالهم ، تتردد فى كتب الصحاح والسنن .

هكذا كان انقسام الأمة نقمة على العلم . وكان الوقوف على أبواب السلاطين نقمة أخرى . والوسائل طيعة ، من ترهيب وترغيب وبثّ للعيون والأرصاد ، وبخاصة على الشيعة . مما أورث هؤلاء العمل بالتقية . والتقية أو الحذر يوجبان الانطواء أو التباعد .

وفى عصر الخلافة العباسية كان « مذهب السلطان » مذهب أبى حنيفة فى المشرق ، ومذهب مالك بإفريقية فى المغرب ، فى حين كانت المعتزلة تتزعم التجديد وتلتصق بالخلفاء . وكان – الشافعية – كإمامهم – أساتيذ جدل ، وكمثلهم كان أهل الظاهر أتباع داود ، وقد بدأ شافعيًّا . وأما المحدثون فقد كانوا يمثلون السلف والدفاع عن السنّة ، ومثلهم المالكية .

وكانت خلافات المتفقهة سمة العصر .

وفى القرن الرابع الهجرى جاب المقدسى (٣٨٠) العالم الإسلامى ، فذكر أن أهل الأندلس كانوا إذا وقعوا على معتزلىّ أو شيعىّ قتلوه ، ثم وصف تناحر الوسط العلمى فى عصره بعبارات حادّة ، قال : « قلما رأيت فى بغداد من فقهاء أبى حنيفة إلّا رأيت أربعًا : الرياسة ، مع لباقة فيها ، والحفظ ، والخشية ، والورع . وفى أصحاب مالك أربعًا : النقل والبلادة والديانة والسنّة . وفى أصحاب الشافعى : النظر والشغب والمروءة والحمق – وفى أصحاب داود :

الكبر والحدّة والكلام واليسار : وفى الشيعة : البغضة ، والفتنة ، واليسار ، والصيت » .

أماالصفتان الأوليان اللتان يصف بهما الشيعة فمردّهما إلى التمسك بمقدساتهم وعلومهم فى مواجهة المتعصّبين الذين لا يكفّون عن التناؤش معهم من قريب أو بعيد . وأما الصيت ، فأىّ صيت فى الأمة أبعد من صيت أهل البيت أو محبيهم ! وأما اليسار فمردّه إلى فتوح الله عليهم ، بالعلم الذى طالما علّمهم الإمام جعفر الصادق ، فى « منهج كامل فى الاقتصاد » ، سنعرض له فيما بعد .

الفصل الثانى

الدرس الكَبير

« لكل نبى وصىّ ووارث . وإن
وصيّى ووارثى علىّ بن أبى طالب »

« حديث شريف »

أحدث انقسام الأمة بفعل بنى أمية أثره فى الفقه . وليس كلام بعض المسلمين فى أفراد من الصحابة إلّا أثر من آثار هذا الانقسام . ومن الطبيعى ألّا تمتنع الألسنة عما لم تمتنع عنه الأسلحة . وأن تستمر معارك الكلام وإن توقفت رحى الحرب .

شق أهل الشام عصا الطاعة لأمير المؤمنين منذ استخلف . وانتهت يوم « وقعة الجمل » فتنة عمياء فيومئذ قال محمد بن الحنفية وهو يحمل الراية : هذه والله الفتنة الكاملة العمياء . وناداه أمير المؤمنين : « هل عندك فى جيش ، مقدمه أبوك ، شىء ! » .

ونفر البطل للقاء أهل الشام فى صفين . ورفع جيش معاوية المصاحف . ثم كانت خدعة التحكيم وخروج الخوارج وهزيمتهم . لكنهم ظلوا يمثلون التعصب العميق لفكر لم يتمرس بالسياسة وتبعات القيادة وحقن الدماء . فلاموا عليًّا لقبوله التحكيم مع معاوية[1] . ومنذئذ لم يوالوا عليًّا ولا من والاه – لكن الدولة

---

(١) كفّروا عليًّا لقبوله التحكيم ورأوا أن الخلافة لابدّ لها من بيعة الجمهور . وأنها لا تنحصر فى بيت معين وبرئوا من علىّ وعثمان ومعاوية . الأوّل لقبوله التحكيم والثانى لمخالفة سياسة الشيخين =

لم تؤل إليهم ، ولهذا قلّ أثرهم فى الاتجاه العام للأمة .

وإنما الذى أحدث أثره العظيم فى الأمة خلاف معاوية . إذ ولى الحكم وألزم ولاته بالطعن فى علىّ . والتنكيل بمن والاه . ونظرت العامة إلى مصلحتها العاجلة فى توقى الشرور من السلطة . ونظر المتفقهون - ومعهم جمهور الأمة - بفقه طابعه الشمول ، أنزل الخلفاء الراشدين الأربعة منازلهم . وسبحت ثلة منهم بزوارق السلطة خوفًا أو طمعًا . ورأى البعض إرجاء إبداء الآراء . وبطش بنو أمية جبارين . فقلّ عدد الشيعة أو توارى بعضهم تقية ، كما قلّ اتصال أهل البيت بالعامة وفقهاء الجمهور . واستمسك الشيعة بفقههم وروايات الأحاديث من أئمتهم أو عن أئمتهم .

ولما قتل معاوية حجر بن عدى ، لغضب الصحابى الجليل من القدح فى اهل البيت ، كان معاوية يقتل استقلال الآراء عن السلطة . ثم كانت البطشة الكبرى بأهل البيت فى كربلاء (سنة ٦١) متابعة من يزيد لأبيه فى حماية « العرش » الأموى بغير حساب . ثم صفّت وقعة الحرة (٦٣) جيل الصحابة من المهاجرين والأنصار .

وفصلت حروب المختار بن عبيد بيّن أشياع السلطة وبين علىّ من جديد - ولم تكن حرب ابن الزبير مع أهل الكوفة ، ولا حربهم لبنى مروان ، إلّا أسبابًا جديدة لانكماش الشيعة . والحجاج - والى عبد الملك بن مروان - مصلت سيفه . وكمثله الولاة بعده .

فى أخريات هذا العهدكان زين العابدين قد ملأ الأفق بورعه وعلمه وسخائه ، حتى مات . وبزغ نجم الباقر فى سماء المدينة ، وأعقبه الصادق ، ليبدأ إمامةً مهّد لها أبوه . ومكن لهم أن يبشروا العلم ، الانصراف عن السياسة

= أبى بكر وعمر والثالث لاستيلائه على الأمر بالقوّة .. يأخذون بظاهر العبارة من القرآن . ولا يأخذون من السنّة إلّا ما يرويه من يتولونهم . وعمدتهم فى ذلك الأحاديث المروية على عهد الشيخين . وكل من تعدى حدود الله عندهم فاسق . ولذلك عدّوا أشياع معاوية والذين لم يتبرءوا من علىّ وعثمان - وهؤلاء جمهور الأمة - خارجين على الإسلام واستحلوا ما لهم وقتلهم ، وبهذا نفر الناس منهم .

أو المطالبة بالحكم ، فأشرق الفجر الجديد .

لكن خروج زيد بن على ، ثم هجوم الخوارج على المدينة ، ثم هزيمتهم ، ثم هزيمة بنى مروان أمام العباسيين ، ثم فتكات العباسيين بأبناء علىّ ، وقد تضاءلت بالنسبة لها صعقات الأمويين ، كل أولئك زاد القطيعة بين أصحاب السلطة وبين أهل البيت ، والانطواء من الشيعة على أنفسهم ، والانفصال بين معظم الرواة من أهل السنة وبينهم :

فرأينا عامر بن شراحبيل الشعبى (١٠٤) شيخ المحدثين فى العراق وقاضى بنى مروان يقول : « ماذا لقينا من آل علىّ إذا أحببناهم قتلنا وإن عاديناهم دخلنا النار » .

ومن كثرة ما عمل للخلفاء ، صار دربًا على معاملة الأمراء : سأله الحجاج : كم عطاءك قال : ألفين . فاستدرك الحجاج وقال : ويحك كم عطاؤك ؟ قال : ألفان . قال : لم لحنت ؟ قال : لما لحن الأمير لحنت . ولما أعرب أعربت ..

وسمعنا الحسن البصرى (١١٠) الجسور ، إذ يروى عن علىّ ، يقول : « قال أبو زينب » – ولما سأله ابن عياش : « ما هذا الذى يقال عنك إنك قلته فى علىّ ؟ » أجاب : « ياابن أخى . احقن دمى من هؤلاء الجبابرة . لولا ذلك لسالت بى أعشب » .

ولما تقطعت بين الشيعة وغيرهم الأسباب ، اضمحلت ، أو قلّت ، المشاركة العلمية . وصار هنالك عالمان فقهيان متقاطعان .

* * *

ولم يكن غريبًا فى هذه القطيعة أن تقلّ رواية أهل السنة عن أهل البيت . أو أن نرى مالك بن أنس – فى المدينة ذاتها – يُسأل عن سبب ندرة الرواية منه ، عن علىّ وابن عباس فيجيب : لم يكونا ببلدى . (يقصد أن عليًّا كان بالكوفة وابن عباس بمكة) . أو نراه يقتصر ، فيما يرويه عن الإمام الصادق ، على

أحاديث قليلة جدًّا فى الموطأ ، وفيه نحو من ألف حديث[1] .

ولما قال البخارى بعد أكثر من مائة عام من قيام الدولة العباسية – عن صحيحه « ما وضعت فيه إلا الصحيح . وما تركت من الصحاح أكثر » كان فى هذا القول دلالة على الاحتياط العلمى ، وعلى أن أحاديث صحاحًا قد أغفلت . وأنها أكثر مما تضمنه كتابه من الصحيح . ولعله بهذا يقصد ، فيما يقصد ،

---

(١) من أدلة وحدة العلم أو التقارب فيه حديث ، من هذه القلة ، هو حديث اليمين مع الشاهد . وهى مسألة أريق فيها مداد كثير لفقهاء أهل السنّة . جاء فى الموطأ رواية محمد بن الحسن : « أخبرنا مالك أخبرنا جعفر بن محمد عن أبيه أن النبى ﷺ قضى باليمين مع الشاهد » .

قال محمد بن الحسن – ذكر ذلك ابن أبى ذئب عن ابن شهاب قال : سألته عن اليمين مع الشاهد فقال : بدعة . وأوّل من قضى فيها معاوية . وابن شهاب أعلم عند أهل المدينة بالحديث من غيره .

وكذلك ذكر ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح قال : « كان القضاء الأوّل لا يقبل إلّا شاهدين وأول من قضى باليمين مع الشاهد عبد الملك بن مروان .. » .

وهذا الحديث وارد فى سنن الترمذى وابن ماجه ورواه عن ابن عباس مسلم وأبو داود والنسائى ومسند أحمد . والصحاح الخمسة تذكره موصولاً – وتعمل به المدينة ومكة ، وقد ذكر ابن الجوزى أن رواة الحديث يزيدون عن عشرين صحابيا .

والمذاهب الثلاثة تعمل به . وأبو حنيفة لا يعمل به .

والشافعى يرى زين العابدين أعلم أهل المدينة ، يقول فى دفاعه العلمى المجيد عن حجية خبر الواحد فى الرسالة : « وفى تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفى بعض هذا منها ... ولم يزل سبيل سلفنا والقرون بعدهم إلى من شاهدنا هذا السبيل .. ووجدنا على بن حسين « يقصد زين العابدين » يقول : أخبرنا عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أن النبى قال : « لا يرث المسلم الكافر » فثبتها سنة ويثبتها الناس بخبره سنة .

ووجدنا كذلك محمد بن على بن حسين « يقصد الباقر » يخبر عن جابر عن النبى وعن عبد الله ابن أبى رافع عن أبى هريرة فيثبت كل ذلك سنة .

ووجدنا محمد بن جبير بن مطعم . ونافع بن جبير بن مطعم ، ويزيد بن طلحة بن ركانة ، ومحمد بن طلحة بن ركانة . ونافع بن هجير بن عبد يزيد ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن ، وحميد بن عبد الرحمن ، وطلحة إن عبد الله بن عوف ، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف وخارجة بن زيد بن ثابت . وعبد الرحمن بن كعب بن مالك . وعبد الله بن أبى قتادة . وسليمان بن يسار . وعطاء بن يسار ، وغيرهم من محدثى أهل المدينة ، كلهم يقول حدثنى فلان لرجل من أصحاب النبى عن النبى أو من التابعين عن رجل من أصحاب النبى ، فيثبت ذلك سنة » .

وإنك لتلاحظ أن الشافعى يستند إلى رواية زين العابدين والباقر فيضع زين العابدين فى مقام خاص به . هو الأوّل . ويضع ابنه الباقر فى المقام التالى لأبيه . ثم يجىء بالأبناء العلماء ، للصحابة العظماء ، وراء هذين المقامين ، ويجىء بهم مجموعين ، ثم يجىء بفضلاء التابعين بعد هؤلاء جماعات .

أحاديث « علىّ » وأهل البيت فيما تركه من صحاح . فهو لم يرو أحاديث أهل البيت ، فى حين احتجّ بها الجميع وورد الكثير منها فى سائر الصحاح والمسانيد[1] .

ومع أن الحرب الكلامية والافتراءات الموجهة للرواة كانت ضروسًا فقد وثق الأئمة الفقهاء والمحدثون - أعظم التوثيق - الإمام جعفر الصادق . وشرفوا بالرواية عنه . ووقفت المذاهب الأربعة موقف الإجلال له . فكان ذلك إعلانًا من أهل العلم أن أئمة أهل البيت للجميع لا للشيعة وحدهم . وأن الحديث متى ثبت عنهم هو حديث جدّهم ﷺ :

وكان يوسف بن أبى يوسف يروى عن أبيه عن أبى حنيفة عن « جعفر ابن محمد » عن سعيد بن جبير عن ابن عمر حديث رسول الله . وفى الوقت ذاته يروى عن أبيه عن أبى حنيفة عن إسحاق بن ثابت عن أبيه عن علىّ ابن الحسين حديث رسول الله، مع أن علىّ بن الحسين «زين العابدين» لم ير جدّه - واللقاء من شروط البخارى - ويروى يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن « جعفر بن محمد » حديث رسول الله - مع أن الصادق حفيد زين العابدين - فهذا أبو حنيفة ومن روى عنهم - كمثل مالك وغيره - يروون عن أئمة أهل البيت ، ويأخذون بحديثهم عن رسول الله ، مع أنهم لم يلقوه أو لم يكن بينهم وبين الرسول صحابى .

والكتب التى يقوم عليها الفقه الشيعى تروى كلها عن الإمام جعفر الصادق

---

(١) روى أحمد بن حنبل أحاديث أهل البيت فى مسنده الأعظم . وروى كذلك مسلم بن الحجاج (٢٦١) وسليمان بن الأشعث السجستانى « أبو داود - ٢٧٥ » ومحمد بن عيسى الترمذى (٢٧٩) ومحمد بن يزيد بن ماجه (٢٧٩) والنسائى أحمد بن على بن شعيب (٣٠٣) بقية أصحاب الصحاح كما يسميها أهل السنة .

والنسائى من شهداء الوفاء لعلىّ : خرج من مصر إلى الشام فسألوه عن فضائل معاوية - إذ كان قد ألف فى فضائل علىّ - وقيل إنه أجاب : ألا ترضى رأسا برأس حتى تفضل ؟ أو قال : لا أعلم له فضيلة . فما زالوا يدفعونه فى خصيته حتى أخرجوه من المسجد وقد أشرف على الموت فقال : احملونى إلى مكة فحمل إليها حيث توفى .

أو الأئمة المعصومين . يستوى فى ذلك الكتب الأربعة الشهيرة وغيرها .

فى هذه الأضواء نستطيع أن نفهم انقسام العلم بانقسام مصادره . وانحسار هذاالبحر من بحاره عن الجمهور ، باقتصاره على الشيعة . ولا جرم كانت فيه كفاية لإنتاج دق الفقه وجله ، بما فيه من غزارة ، وباعتماده على النقل والعقل معًا . وبإقبال الشيعة – شأن الأقليات جميعها – على تعميق علومها ، وتقوية شعوبها . وساعدهم انفتاح الفكر واجتهاد الرأى فى تطهير وسطهم العلمى والاجتماعى ممن ينتسبون ، أو ينسبهم الخصوم ، إليهم ، من الغلاة فى علىّ ابن أبى طالب[1] . ثم تمييز علمهم من علم المخالفين الذين يتولون غير الإمام

---

(١) كان وجود غلاة فى الشيعة فرصة للمغرضين ، إذ نسبوا عمل الغلاة إلى الشيعة كلهم . فأحدثوا بذلك أثرًا كاذبًا فى أفهام الآخرين ، بدعاوى هم منها براء ، مثل أن الإمام هو الله ظهورًا واتحادًا . وهو غلوّ يبلغ الكفر . وأكثر المنسوبين غلوًا أتباع ابن سبأ وأبى الخطاب الأسدى الذين يؤلهون عليًا والأئمة . وهؤلاء ليسوا مسلمين .

ولقد حرق على بالنار من ألهوه وتبرأ الصادق من أبى الخطاب الأسدى . وقتله جند أبى جعفر وكان ابن سبأ يهوديا من صنعاء أسلم وانطلق إلى الحجاز والبصرة والشام ومصر . والمؤرخون الأولون كالطبرى (٣١٠) والمؤرخان الشيعيان أبو خلف القمى (٣٠١) والنوبختى (٣١٠) يؤكدون وجوده ، فى حين يشكك فى وجوده آخرون ممن جاءوا بعد ذلك .

كان ابن سبأ يحرض أبناء العشائر ضد عثمان . قائلًا إن لعلىّ مكانًا فوق الصحابة بل فوق سائر الخلق . ولما قتل علىّ قال إنه سيرجع . وقد نفاه علىّ إلى المدائن إذ كان يقول له : « أنت أنت » ثم صار يقول : « عجبا من الذين يكذبون رجوع محمد فى حين يقولون إن عيسى يرجع » ويقول : إن محمدًا خاتم النبيين وعليًا خاتم الأوصياء . ويقول : إن عثمان ولى الخلافة بغير حق .

وقال البعض : إن ابن سبأ دفع أبا ذرّ ليقول ما قال لعثمان . ولا شك أن ابن سبأ أقل من أن يرتفع إلى مستوى تحريض أبى ذر . وأن نسبة آثار ضخمة جدًا لأراجيف بن سبأ فى محيط صغير جدًا وزمان قصير جدًا – ليس إلا وجه من تعليق الأوزار ، التى ارتكبتها أجيال أفرخت فيها الفتن ، على عاتق رجل لا قيمة له . والكثيرون من المؤرخين على أن ابن سبأ لم يلق أبا ذر .

وتعليق الأوزار هروب . وهو عيب قديم فى المجتمعات التى تفقد صدق الرؤية ، فتبرئ نفسها – ظلما – من عيوبها ، فتلقيها على الآخرين . وهو أيًا كانت الحال غلوّ فى تضخيم شأن ابن سبأ وأشباهه لتبغيض الشيعة إلى الآخرين . ولقد طالما أحدث هذا التبغيض من قوم لا يعلمون الحقائق آثاره فى نفس قوم مخلصين . . وفى ظلمات هذه الجهالات يتوارث المسلمون فرقة يفرضها عليهم من يفيدون لأنفسهم ومن يجهلون .

جعفر وغير أبيه كالزيدية[1] .

أو من علم الذين يتولون غيره وغير أبيه وجدّه[2] كالكيسانية .

---

(١) الزيدية : أتباع زيد بن علىّ زين العابدين - أخى الباقر - قالوا أنه فوّض فى الإمامة قبل أن يستشهد إلى محمد بن عبد الله بن الحسن « النفس الزكية » .

وكان زيد يجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل لمصلحة يراها المسلمون ، لهذا أجاز خلافة أبى بكر وعمر . فرفضه شيعة العراق فسموا رافضة . ومنذئذ أطلق على الشيعة الإمامية اسم الرافضة . وقيل : سموا الرافضة لرفضهم إمامة أبى بكر وعمر . والأوّل رأى الشهرستانى والأخير رأى أبى الحسن الأشعرى . والشهرستانى من الشيعة والأشعرى من أهل السنّة .

وزيد يقول : إن الأدلة اقتضت تعيين علىّ إمامًا « بالوصف » لا بالشخص . ويقول : إن الشيوخ يختارون « الأفضل » من أولاد علىّ من فاطمة ، عمومًا ، « بالاجتهاد » .

ومن شروط الزيدية أن يجتهد أئمتهم . ولذلك كثر فيهم الأئمة المجتهدون . ومن شروطهم أن يخرج الإمام داعيا لنفسه . وعلى هذا الشرط جادل الباقر أخاه زيدًا بقوله : « على قضية مذهبك والدك ليس بإمام فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج » . ومن الزيدية اليعقوبية يقولون بولاية أبى بكر وعمر ويتبرءون ممن يبرأ منهما وينكرون رجعة الأموات . وبقية الزيدية تتوقف فى أمر الرجعة لا يقولون بها ولا ينكرونها .

وظهرت فى المذهب الزيدى مذاهب منها الهادوى والقاسمى والناصرى والهارونى التى تخالف الأصل فى فروع يسيرة وتسير عليه فى جملة الفروع وتلتقى بمذاهب أهل السنّة ، وبخاصة المذهب الهادوى الذى أسسه إمام اليمن الإمام الهادى « يحيى بن الحسن بن إبراهيم بن القاسم » صاحب صعدة (٢٨٠ - ٢٨٩) وكان أئمة المذهب الهادوى من عظم اتفاقهم مع المذهب الحنفى يرون الأخذ بالمذهب الحنفى إذا لم يجدوا عن الإمام الهادى نصًّا فى المسألة . بل يذهبون إلى أبعد من ذلك فيأخذون بأرجح ما فى المذاهب الأخرى .

والزيدية ترى أن كل من دعا لنفسه من أولاد علىّ من فاطمة الزهراء ، وكان مستكمل الصفات وجب اتباعه .

وقد كتب لهم النجاح فى اليمن وطبرستان إلى الجنوب من بحر قزوين . والعرب تسمى بحر قزوين بحر طبرستان . وقد ملك طبرستان الحسن بن زيد ... بن الحسن بن على سنة ٢٥٠ حتى سنة ٢٧٠ . وكانت ثورة ابن طباطبا فى بغداد فى أيام المأمون زيدية .

(٢) الكيسانية يقولون بإمامة محمد بن الحنفية بعد وفاة أبيه . وإن الحسن والحسين إنما خرجا بإذنه . ومن الكيسانية أشياع المختار بن عبيد الله الثقفى (٦٧) .

ومنهم الهاشمية . الذين يقولون : إن محمدًا أفضى إلى ابنه أبى هاشم بالأسرار التى أفضى إليه بها أبوه . ولما مات أبو هاشم انقسمت فرقته فرقًا . واحدة تقول إنه أوصى لأخيه علىّ . وإن الوصية لا تخرج عنهم حتى « يرجع » محمد بن الحنفية . وواحدة تنقسم إلى فرق . منها فرقة تقول : إنه أوصى إلى معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب « وقد قتله أبو مسلم الخراسانى » وفرقة تقول : إنه =

يقول الشيخ المفيد فى غلاة الشيعة : « وهم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام إلى الألوهية والنبّوة ، ووصفوهم فى الدين والدنيا بما تجاوزوا فيه الحدّ وخرجوا عن القصد . فهم ضلّال وكفّار » .

والإمامية لا يجيزون القدح فى الصحابة . فإذا وجد قادحون منهم فآراؤهم فردية ، فى أفراد ، من الصحابة ، يبديها المتطرفون . وأشباههم موجودون فى أهل السنّة ، ممن قدحوا فى بطل الإسلام « علىّ » ، وريحانتى النبى « الحسن » و « الحسين » .

والقدح « معصية » لا تخرج من الإسلام .

ولا يعتبر معصية اجتهاد « مجتهد » تأوّل فأخطأ . وقد نظر علماء السنّة هذا النظر الأخير إلى خلافات المعتركين من الصحابة فى الجمل وصفين . فاعتبروها اجتهادات فيها الخطأ والصواب .

والإمام علىّ معلّم أوّل للأصول والفقه وأدب الدنيا والدين : يقول عن الخوارج الذين كفروه ! وطلبوا إليه التوبة : « إخوانتنا بغوا علينا »[1] .

والإمامية يقولون : إن رسول الله - ﷺ - أوصى إلى اثنى عشر إمامًا بأسمائهم . كل منهم يبين خلفه باسمه . إذ يكشفه الله له . أوّلهم علىّ الذى

= أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس . وهاتان فرقتان تخرجان الإمامة إلى غير أبناء علىّ . وتفسران أهل البيت تفسيرا يسع غير أبناء علىّ .

(١) ويقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة : « وكل من عاداه أو حاربه وأبغضه فإنه عدوّ لله سبحانه وتعالى وخالد فى النار مع الكفار والمنافقين إلّا من ثبتت توبته ومات على توليه وحبه . فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله .. رأيناه رضى إمامتهم وبايعهم وصلّى خلفهم وأنكحهم وأكل فيئهم .. ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه . ولما لعنه لعنّاه . ولما حكم بضلال أهل الشام من كان بينهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه حكمنا أيضًا بضلالهم .. والحاصل أننا لم نجعل بينه وبين النبى إلّا رتبة النبوّة . وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه . ولم نطعن فى أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم » .

وقول ابن أبى الحديد منطقىّ فى اتباع علىّ . ومن المنطق كذلك ترتيب الآثار على بيعة الجمهور خليفة جديد ، هو أمير المؤمنين الحسن بن على ، ثم انعقاد الصلح بينه وبين معاوية فى السنة الحادية والأربعين فلا تسوغ معاملة أشياع معاوية معاملة المحاربين أو الخارجين على الإسلام . فلقد أصلح الله بالحسن بين هاتين الفئتين من المسلمين .

أوصى للحسن . وأوصى الحسن للحسين . وتتابعت لزين العابدين ومنه للباقر الذى أوصى للصادق . وتتابعت الوصية من الصادق إلى ابنه موسى الكاظم (١٨٣) فابن الكاظم على الرضا ، (٢٠٣) فابن الرضا محمد الجواد (٢٢٠) فابن الجواد على الهادى (٢٥٤) فابن الهادى الحسن العسكرى (٢٦٠) فابن العسكرى محمد المهدى المولود بسامرا سنة ٢٥٦ ، والمختفى بعد عام ٢٦٠ والمنتظر ظهوره ليملأ الدنيا عدلاً .

السنّة :

يروى الحارث الأعور : قلت : ياأمير المؤمنين إذا كنّا عندك سمعنا منك ما يشدّ ديننا وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة ولا ندرى ما هى ؟ قال : أو فعلتموها ؟.. سمعت رسول الله ﷺ وعلى آله يقول : « أتانى جبريل فقال : يامحمد ستكون فى أمتك فتن . قلت : فما المخرج منها ؟ فقال : كتاب الله » .

وإذا كان فى الكتاب حلّ لكل مشكلة ، فالسنن موضحة ومنفذة لأحكامه . والسنن إذ تروى عن جعفر بن محمد الصادق أو عنه عن آبائه أو تروى عن الأئمة عامة لا يوجد فيها صحابى يختلف الشيعة معه . وعلى أساس هذه الأحاديث قام فقه الشيعة الإمامية . مرويًا عن الإمام فلا يناقشونه . فكلامه نصوص . أى هو سنّة . فى غنى عن الإسناد ، تغنى عن الاجتهاد . وفى كتبهم كما قيل ما يكفى الأمة حتى أرش الخدش .

وقد دوّن علم الأئمة وفقههم فى كتبهم . ومنه علم لدنّى عن الإمام المعصوم . ومنه تفسيرهم للقرآن[1] . والأئمة – عندهم – قد اختصّوا بعلم ما لم ينصّ عليه وما لم يعلنه النبى – ﷺ .

---

(١) والشيعة تنفى قول القائلين بالصرفة وهو ما يزعمه بعض المعتزلة « النظام » من أن الله صرف المشركين عن أن يحاولوا الإتيان بمثله . فهذا القول مصيره نفى الإعجاز . والإعجاز آية الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأقوال الأئمة حجّة تلى الكتاب والسنّة . والفقهاء الشيعة لا يتجهون إلى الأدلة إلّا فى غيبة الإمام أو حديث الإمام .

والسنّة أساسها القرآن . يقول الإمام الصادق : « إذا رويت لكم حديثًا فسلونى : أين أصله من القرآن ؟ » . روى يومًا نهى النبى « عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال » فقيل له : أين هذا من كتاب الله ؟ فأجاب : إن الله تعالى يقول : (لا خير فى كثير من نجواهم إلّا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) ، وقال تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) .

وقال تعالى : (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) .

فهذه أصول قرآنية ثلاثة لحديث واحد فى السلوك . وهو عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى .

وإذا لم يكشف الإجماع عن رأى الإمام المعصوم فباب الاجتهاد مفتوح لطلب الحكم الشرعى فيما ليس فيه نص . والعقل - مع الضوابط التى يضعونها من قواعد وأصول - قدير على أن يبلغ المجتهد طلبه .

* * *

روى هشام بن سالم قول الصادق : « إنما علينا أن نلقى إليكم الأصول وعليكم أن تفرعوا » - وفى نهج البلاغة جملة من الأصول التى نبّه عليها أمير المؤمنين علىّ ، وتكلم فيها الأئمة الباقر والصادق والرضا : كالكلام عن الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنوافل والفرائض والرخصة والعزيمة والمطلق والمقيّد والمحكم والمتشابه والواجب وغير ذلك . ومما ردّده الأئمة الثلاثة قواعد الجمع بين الحديثين المتعارضين ، والترجيح بينهما ، والتخيير ، وأحكام النسخ ، ولزوم ردّ المتشابه إلى المحكم ، وجواز الأخذ بخبر الواحد ، والعمل بالظاهر ، ومنع القياس أو تفسير القرآن بالرأى ، والعمل بالاستصحاب ، وأصالة الحلّ والإباحة ، والطهارة والبراءة والصحة . وقواعد الفراغ واليد والقرعة .

وكلام الإمام الصادق فى هذه الأبواب كثير . ولهشام بن الحكم كتاب فى

مباحث الألفاظ وفى الأصول . وكذلك ليونس بن عبد الرحمن كتاب فى الأصول .

والسنّة المتواترة هى التى يتكاثر رواتها ويتفرقون إلى حدٍّ لا يمكن معه اتفاقهم على الكذب . وبهذا يتحصل علم قاطع بأنهم لم يجمعهم جامع على الكذب . والتواتر عن الرسول كالتواتر عن الإمام المعصوم .

والإمام الصادق يقول : « حديثى حديث أبى وحديث أبى حديث جدى . وحديث جدى حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين . وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله . وحديث رسول الله قوله تعالى » .

والتعبير بأن حديث الرسول هو قوله تعالى يعدل القول بأن السنّة هى الحكمة التى ذكر القرآن أن الرسول يعلّمها للمسلمين .

وخبر الواحد مقبول لدى جمهور الفقهاء عندهم . وحجّتهم فى ذلك – على الجملة – كحجج أهل السنة[1] .

والصادق لا يرى بأسًا فى روايةالحديث بالمعنى . سأله تلميذه : أسمع منك الحديث فأزيد وأنقص ؟ فأجاب : « أن تريد معانيه فلا بأس » .

ولا يضيقون صدرًا بالإرسال من الثقات ، بغير معارض ، فلقد تقرأ « صحيح فلان عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام »[2] .

ويمكن القول إجمالاً إن الحديث عندهم صحيح وحسن وموثق وضعيف .

---

(١) أما الرواة عمومًا فيشترط أن يكونوا من الإمامية الاثنا عشرية يروون عن « إمام » عن النبى . وثمة من يقبل رواية غير الإمامى مادام موثقا أى أمينًا عند الإمامية . قالوا : « لو كان بعض رجال السند غير إمامى مصرحا بالتوثيق أو مصرحا بالمدح لابدّ من كون الباقى إماميا موثقا » .

(٢) والإرسال لا يمنع قبول الحديث عند أهل السنة .

كان إبراهيم النخعى يروى الحديث مرسلاً . فيقول له الأعمش : إذا رويت لى حديثًا فأسنده فيجيب : إذا قلت : حدثنى فلان عن ابن مسعود فهو الذى رواه . وإذا قلت : قال عبد الله فغير واحد . والحسن البصرى يقول : « إذا قلت لكم حدثنى فلان فهو حديثه ومتى قلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن سبعين » .

فالحديث الصحيح هو الذى ينقله العدل الضابط عن مثله فى جميع الطبقات حتى الإمام المعصوم .

والحديث الحسن هو المتصل السند بالإمام المعصوم . فإن انقطع السند لم يعد حسنًا . ويشترط أن يكون الراوى ممدوحا من غير معارضة ذمّ وإن لم تثبت العدالة . فلو ثبتت لكان صحيحًا .

ولا يمكن أن تصل رواية غير الإمامى إلى إحدى هاتين الدرجتين مهما كانت منزلته من التقى والفقه .

والحديث الموثق هو ما دخل فى طريقه غير إمامى إذا كان الأصحاب الإمامية يوثقونه . وهنا لا يشترط الاتصال بالإمام المعصوم . وهناك من يشترط أن يتوسط غير الإمامى إماميين . وهناك من يرفضه .

والحديث الضعيف غير هذه الأقسام الثلاثة :

وما لا يبلغ حدّ التواتر يسمى خبر الواحد . فوصف الواحد يراد به عدم التواتر ، وقد يكون عن متعددين . فالخبر المستفيض والمشهور نوع من خبر الواحد . المستفيض ماروواه أكثر من اثنين . والمشهور ما اشتهر على الألسن وفى الكتب ، وإن كان رواية واحد[1] .

---

(١) الخبر الذى يحصل العلم بصدوره من قرائن داخلية أو غيرها مطابقة لظاهر القرآن أو معانيه أو لأدلة العقل ، حجّة معتبرة ، لا للشهرة أو الاستفاضة أو التواتر أو أى شىء آخر ، بل للعلم بصدوره الذى هو حجّة بنفسه – فالخبر المتواتر أو المعلوم بصدوره لا حاجة لشروط فى روايته وإنما الشروط فى خبر الواحد .

وقد يعملون بالضعيف إذا اشتهر العمل به بين الأقدمين – أما علامات وضع الحديث فهى كمثلها عند أهل السنّة تقريبا .

وليس عجيبًا أن تكون السنّة التى يتمسك بها الشيعة فى مجموعها هى السنّة التى يتمسك بها أهل السنّة فخلافات الروايات وإسنادها أو إضافة مصدر الأئمة ، لم تدخل فى التراث النبوى العظيم ما يغيره . ومشايخ الإمامية يوثقون المخطئين فى الاعتقاد . والإمام الصادق إذ يقول : « خذوا ماروووا . وذروا ما رأوا » يقصد آراءهم .

ولقد طالما رفض مجتهدوهم أحاديث ذكرت فى كتبهم ، وأخذوا بما جاء فى صحيح البخارى ومسلم لتفحصهم أحوال رجالها .

أما الشهادة فيقول فيها الإمام جعفر : « لو لم تقبل شهادة المقترفين للذنوب لما قبلت إلاّ شهادة الأنبياء ، والأوصياء . فمن لم تره بعينيك يرتكب ذنبًا ولم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة والستر . وشهادته مقبولة وإن كان فى نفسه مذنبًا » .

وإذا كان فى بعض المذاهب من لا يقبل شهادة أصحاب الصنائع التى يسمونها « دنيئة » ، فالإمامية يرون قبول شهادتهم . والله يقول : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فليس فى الصناعات شريف ومشروف ، وإنما الصناع فيهم من هؤلاء وهؤلاء .

والشيعة - مع هذا - ضائق صدرهم بالطفيليين والمستجْدين . فهؤلاء متساهلون فى عزّة النفس التى أمر الله بها المسلمين .

* * *

والصادق يقول : « إن الإجماع لا ريب فيه » . وهو عند الإمامية « اتفاق جماعة يكشف اتفاقهم عن رأى المعصوم » فلا يخلو عصر من وجود الإمام ظاهرًا أو خافيًا . وإذ كان اتفاق جماعة من الإمامية فيخرج غيرهم . ومن أجل ذلك عرفت آراء الصادق من خلال اتفاق تلاميذه .

وليست الحجّة للإجماع . بل هى لرأى الإمام المعصوم الذى يكشف عنه الإجماع .

والإجماع يثبت بالتواتر والمشاهدة وبخبر الواحد . وليس اجتماع الرجال شرطًا عندهم . والإجماع من عصر أو عصرين لا يجعل الحكم ضرورة دينية أو مذهبية . بل يكون اجتهاديًا يقبل الجدال . أما إجماع الأمة فى كل عصر ومصر ، من عهد الرسول للآن ، فيجعل الحكم من ضرورات الدين . والإجماع من الصحابة يدخل فيه علىّ بن أبى طالب . فهو الإمام المعصوم .

* * *

والعقل يكشف عن نظر الإمام إن لم يوجد نصّ أو إجماع .

فالاجتهاد[1] مفتوح أبدًا فى الظنيات التى ليس فيها دليل من الشرع يفيد اليقين ، وليس للعقل فيها حكم واجب حتم . كخلاف الصحابة فى العول فى المواريث وعدّة الحامل المتوفى عنها زوجها . وكالمعاملات . أما القطعيات فلا اجتهاد فيها كالعقائد الواجبة ، وما ثبت من الأحكام العملية بالتواتر . والعقائد كاتصاف الله بالكمال وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، والبعث والحساب . والأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج .

وليس من وسائل اجتهاد الشيعة القياس . فالإمام الصادق يقول : « إن السنّة إذا قيست محق الدين » ، ولما قيل له أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها ؟ قال : « ما أجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله ﷺ . لسنا من أرأيت فى شيء » لكن وسائل استعمال العقل مباحة للمجتهد .

والإمام الصادق يقول : « ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل فى كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال » .

وآيات الأحكام قليلة ، وكمثلها قلّة ، أحاديث أصول الأحكام ،[2] فوجب الاجتهاد .

---

(١) يشترط الشيعة فى المجتهد :

١ - العلم باللغة .

٢ - بالكلام .

٣ - بكتاب الله والسنة .

٤ - بطرق الاستنباط .

٥ - المسائل المجمع عليها حتى لا يخالفها اجتهاد .

٦ - الفطنة وإدراك الحقائق .

٧ - العلم بمواطن الخلاف . كل ذلك .

٨ - وهو إمامى .

(٢) آيات الكتاب (٦٢٣٦) آية على طريقة عدّ الكوفيين كما ورد فى التعليق على المصحف المتداول بمصر من سنة ١٣٣٧ هجرية أحصى بعض فقهاء أهل السنّة نحو (١٤٠) فى العبادات ، و (٧٠) فى المعاملات ، و (٧٠) فى الأحوال الشخصية والمواريث ، (٢٠) فى الجنايات ، و (١٣) فى المرافعات ، و (٢٠) فى القضاء والشهادة ، (١٠) فى الاقتصاديات و (١٠) فى المسائل الدستورية ، (٢٥) فى المسائل الدولية - وأحاديث أصول الأحكام عندهم نحو (٤٥٠) بين آلاف الأحاديث أكثرها بيان مجمل أو تفصيل موجز أو تشريع ما سكت عنه .

ونحن مأمورون باستعمال العقل . وحِكَم السماء تظهر للعقول بالتدريج .

كان أصحاب النبى يجتهدون فى وجوده وازدادت حاجتهم للاجتهاد بعد موته . والدنيا أطوار تحتاج للفقه الذى يطبق عليها حكم الشريعة لتبقى الحياة محكومة بالدين ، وتتطور فى حدود مقاصد الشارع .

وحكم الله فى كل مسألة معين ، نصب الله دليلاً عليه . فمن المجتهدين من يصل إليه ويصيبه . ومنهم من لا يصل إليه ويظنّ غيره . فهو مخطئ معذور . مغفور له خطؤه مادام قد بذل جهده دون هوى . وللمصيب أجران لصوابه واجتهاده وللمخطئ أجر واحد على اجتهاده .

فذلك حكمه ﷺ[1] . ومن أجله كانت السماحة التى اتّصف بها الصحابة إذ يختلفون .

والمنصفون من كل المذاهب يعلنون أن فى المذاهب الفقهية المعتبرة خطأ وصوابا . وليس منها مذهب واحد كله خطأ أو كله صواب . لذلك كان التعصب المطلق آفة تُوف الفقهاء . لقد كثرت مخالفات علىّ لعمر ، ونزول عمر عند رأى علىّ .

وعلىّ هو القائل بأنه ترك لعمر تنفيذ رأيه « فى بيع أمهات الأولاد » فى حياة عمر ، ولما آل إليه الأمر أنفذ رأيه . فعلمنا أمورًا : منها :

١ - أن المذهب الشيعى وهو يدور حول آراء علىّ ، إنما هو مذهب حىّ فى حياة الخلفاء الراشدين أنفسهم . فلما آل إليه الأمر وأتيحت له الفرصة التى أتيحت لغيره لتطبيق اجتهاداته أنفذها - ولكن المكان والزمان ضاقا عليه لتوزّع جهده فى الحروب ، وانحصار سلطانه على الأرض ، ومعاجلته بيد الخوارج .

٢ - حق الخليفة فى إنفاذ رأيه . ومن ثمة أنفذ عمر رأيه فى أمور شتى كما أنفذ أبو بكر رأيه من قبل . والرأى اجتهاد .

---

(١) يقول عليه الصلاة والسلام لمن سأله اجتهد وأنت حاضر ؟ نعم . إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر .

٣ – مشروعية الخلاف . وهو درس تعلّمه الصحابة من صاحبهم ﷺ . مطلوب من الجميع أن يتعلموه . وأن يعلّموا الناس أنه وسيلة التقدم .

روى النسائى أن رجلاً أجنب فلم يصلّ . فذكر ذلك للنبى فقال : أصبت . وأجنب رجل فتيمم وصلّى ، فذكر ذلك للنبى فقال ؛ أصبت . وروى البخارى عن عمران بن حصين أنه قال للرجل الذى اعتزل فلم يصلّ فى القوم : « فما يمنعك أن تصلّى » فقال : أصابتنى جنابة ولا ماء .

قال : « عليك بالصعيد . فإنه يكفيك » .

ورأى عمرو بن العاص فيما فهم من قوله تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) جواز التيمم للجنب إذا خاف على نفسه البرد .

والآثار فى الخلاف بين الصحابة كثيرة جدًّا[1] .

والخلاف بين المجتهدين أجلّ من أن يحصر . وفيه ثراء للفكر ، وسعة فى الدنيا . ورحمة بالأمة .

كان أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الفصد والحجامة والرعاف .

فقيل له : فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلى خلفه ؟

فقال : كيف لا أصلى خلف « مالك » وسعيد بن المسيب » ؟

وكان مالك يفتى الرشيد أنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم . فصلّى يومًا بعد الحجامة وصلّى خلفه « أبو يوسف » صاحب « أبى حنيفة » « وهو يرى الوضوء من الحجامة » .

واغتسل أبو يوسف فى الحمام ، وأخبر بعد صلاة الجمعة أنه كان فى بئر الحمام فأرة ميتة فلم يعد صلاته وقال : « نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة : إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثًا » .

فهؤلاء أئمة المذاهب لا يتسامحون فى خلافاتهم فحسب . بل يتجاوزون الخلاف العلمى إلى التطبيق العملى .

---

(١) راجع نحو تقنين جدد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى « من مطبوعات لجنة تجلية مبادئ الشريعة الإسلامية » – عبد الحليم الجندى – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فقرات ٤٢ إلى ٤٨ .

من أجل ذلك يقول أحمد لتلميذه إسحق بن بهلول إذ ألف كتابًا يريد أن يسميه « كتاب الاختلاف » : « سمه كتاب السعة » .

ويقول عمر بن عبد العزيز « ما سرنى باختلافهم حمر النعم » .

الإمامة :

الإسلام دين ودولة . فالدولة تكفل لمبادئ الإسلام التطبيق ، والانتشار ، وانتفاع الجماعة والأفراد به . وبالدين عزّة الفرد والجماعة ، ورسوخ أركان الدولة . والدين للدولة روح للجسد . وهو للفرد دم نقى يجرى فى عروقه أو هواء صحى يتنفسه . ولا حياة إلّا بالدم والتنفس . وكان من آيات الإعجاز الإسلامى أن يبلغ المسلمون الذروة أفرادًا أو دولاً أو مجتمعات فى عصر ، أو فى أشهر ، بل فى ساعات ، بمجرد إخلاصهم فى التمسك بالإسلام .

لقد بلغوا ما يدعو إليه الإسلام فى « خلافة » أبى بكر وعمر ، والسنين الستة الأولى من « خلافة » عثمان ، وفى أقل من ثلاثين شهرًا فى « خلافة » عمر بن عبد العزيز . والخلافة الراشدة قيادة مسدّدة .

ولقد بلغ المحاربون مبالغهم ، فى يوم واحد ، هو العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ ، إذ كانوا يقتحمون حصون إسرائيل وهم يتنادون : الله أكبر : الله أكبر.

والإمامة – أو الخلافة – قد تكون خلافة عن النبى فى تبليغ الأمور الدينية أو فى الولاية السياسية أو فيهما جميعًا . وهى عند الشيعة دينية وسياسية محصورة فى أهل البيت . لكنها عند جمهور أهل السنّة تجوز لأىّ قرشى عادل ، يختاره المسلمون بشورى صحيحة ، وبيعة عامة .

ولا تبقى الخلافة إلّا ما بقى الخليفة قائمًا بالعدل ، فإذا انحرف لم تبق خلافة نبوية بل استحالت سلطة دنيوية أى ملكًا .

والشافعية والمالكية والحنابلة يرون القرشى العادل إذا تغلب ، فبايعه

المسلمون بيعة صحيحة راضين مرضيين ، تكون البيعة له صحيحة ، وإن تأخرت عن الولاية التى نالها بالغلبة . أما الحنفية فيشترطون سبق البيعة ضماناً للحرية وكفالة للمشورة .

والشيعة الإمامية يرون الإمامة ثابتةلاثنى عشر إمامًا بذواتهم لا بالبيعة لهم ، ولكن بالوصية إليهم . وهم علىّ وبقية الاثنى عشرة ، والله يعلن الإمامة لمن قبله فيوصى السلف للخلف . وليست بيعة الجماعة لهم إلّا إعلان رضا المسلمين بهم ، لا ترشيحهم أو اختيارهم .

والشيعة الإمامية يرون « واجبًا على الله تعالى » أن ينصب إمامًا للناس لطفًا منه بعباده . وأهل السنّة يرون نصب الإمام « واجبًا على الناس » .

أما الخوارج فلا يرون واجبًا نصب الإمام ، بل يرونه « جائزًا » ، إلّا إذا قامت الحاجة إليه فيجب . وهم كالمعتزلة يرون أن الخلافة يصلح لها أصلح رجل فى الأمة عربيًّا أو غير عربى ، ويرون أنها تكون بانتخاب حرّ . ويؤثرون أن ينتخب غير قرشى ، ليسير نزعه إن أخطأ .

يقول الإمام الصادق : « لا يموت الإمام حتى يعلم من يكون من بعده فيوصى له » ، ويقول : « أترون الموصى منّا يوصى إلى من يريد ؟ لا والله . ولكن عهد من الله ورسوله لرجل فرجل ، حتى ينتهى الأمر إلى صاحبه » .

ويقول لتلميذ له : « ياأبا محمد إن الله افترض على أمة محمد ﷺ خمس فرائض . الصلاة والزكاة والصيام والحج وولايتنا . فرخص لهم فى أشياء من الفرائض الأربعة . ولم يرخص لأحد من المسلمين فى ترك ولايتنا . لا والله ما فيها رخصة . وقال النبى عليه الصلاة والسلام : « من مات وليس عليه إمام مات ميتة جاهلية » . عليكم الطاعة فقد رأيتم أصحاب علىّ » .

ومن توفيق الإمام جعفر ، وأبنائه ، أنهم لم يطلبوا لأنفسهم خلافة دنيوية . وبهذا يتميز تاريخ الشيعة الإمامية من الشيعة الإسماعيلية ، التى ستظهر بعد موت الإمام بوقت طويل . والتى كان من أهدافها ولاية السلطة ، وإقامة الدول .

قال سليمان بن خالد للإمام الصادق : إن الزيدية قوم عرفوا وخرجوا وشهدهم الناس ، وما على الأرض محمدى أحبّ إليهم منك . فإن أردت أن تدنيهم وتقرّبهم منك فافعل . فأجاب : « إن كان هؤلاء السفهاء يريدون أن يصدّونا عن عملنا إلى جهلهم ، فلا مرحبًا بهم ، وإن كانوا يسمعون قولنا وينظرون أمرنا ، فلا بأس » .

ومع أن « مؤمن الطاق » - تلميذ الإمام الصادق - ثبّط زيدًا عن الخروج ، « فالصدوق » يروى عن الإمام « الكاظم » قول أبيه : « رحم الله عمى زيدًا . إنه دعا إلى الرضا من آل محمد . ولو ظفر لوفى » . فزيد لم يدع لنفسه ، لأن الإمامة كانت للباقر . وإنما كان خروجه تجديدًا للاستشهاد عندما تدعو دواعيه .

يقول الصادق : « مضى والله عمى زيد وأصحابه شهداء على مثل مامضى عليه الحسين بن علىّ بن أبى طالب وأصحابه » . بل هو يعلن الاستعداد للاستشهاد ، ويراه واجبًا من واجبات أهل البيت عامة ، والأئمة خاصة . وأبو بصير يروى عنه قوله : « إن الله تعالى أعفى نبيكم أن يلقى من أمته ما لقيت الأنبياء من أممها . جعل ذلك علينا » .

والشيعة مجمعون أن عليًّا أولى بالخلافة - دينية أو دنيوية - من الصديق ومن عمر ومن عثمان - لكن عليًّا سما عن أن يترك فى الأمة صدعًا يوم بايع لأبى بكر ، وقبل استخلاف أبى بكر لعمر ، وبايع لعثمان مع المسلمين .

وتسبيب البيعة بأنها كانت لرأب الصدع فيه تسليم بأن ولاية شئون الدولة يمكن أن تنفصل عن الخلافة الدينية . فلو كانت غير ذلك لما سلّم علىّ فى أمر يخالف الدين . ولقد طالما عالن الخلفاء الثلاثة برأيه الشجاع . وأجمعوا دائمًا على تقديره ، ونزلوا عنده - وسيبقى له فى ضمير التاريخ وصحفه أنه دخل فى إجماع المسلمين . فذلك درس لهم - من دروسه التى لا تكاد تحصى - ليعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا .

والذين يقولون - من أى فريق - إن عليًّا بايع « مرغمًا » يتأوّلون . فعلىّ

أعلى صوتًا ومكانًا من أن يرغم ، أولا يعلن رأيه ، مواجهة ، ولما بايع عمر لأبى بكر يوم السقيفة ، كان يومئذ - كعلىّ يوم بايع - يرأب الصدع بين المهاجرين والأنصار ، وهم بين أظهرهم . ولما جعل عمر الخلافة شورى فى الستّة بعده ، كان مسئولاً عن المسلمين ، كما كان أبو بكر يوم استخلفه .

وعلىّ فى طليعة المسئولين ، وكمثله الأئمة بعده[1].

والذين ينسبون إلى الشيعة ما صنعه أو فهمه الدهماء منهم من قدح فى أبى بكر أو فى عمر ظالمون . ومن الشيعة مفكرون يعلنون أن من تعود البعض من الشيعة أن يلعنوه فى احتفالات مآتم عاشوراء - وقد ظهرت بعد موت الإمام جعفر الصادق بقرن فى عهد دولة بنى بويه - هو عمر بن سعد قائد الجيش الذى قتل الحسين .

جاء فى كتاب الأستاذ أحمد مغنية عن الإمام جعفر الصادق : « وقد حورب المذهب الجعفرى فى عهد العثمانيين والأتراك .. كما أن المفرقين أنفسهم وجدوا فى اتفاق الاسمين : عمر بن الخطاب وعمر بن سعد قاتل الحسين ، ميدانًا واسعا يتسابقون فيه فى تشويه الحقائق .. يعرف الناس جميعهم أن الشيعة يعنون عناية تامة فى المآتم الحسينية التى تقام أيام عاشوراء وغير عاشوراء من أيام السنة .. والحسين هو موضوع تلك المآتم .. وكان طبيعيًّا أن يكون لعنة اللعنات عمر بن سعد . ومَن مِن المسلمين وغير المسلمين لا يلعن عمر بن سعد قاتل ابن بنت رسول الله ؟.. لا أنكر وجود أفراد - بالأمس - من سواد الشيعة وبسطائهم لا يفرقون بين هذين الاسمين بل لا يعرفون أن فى دنيا التاريخ الإسلامى عمرين تقيًّا وشقيًّا .. وساعد على بعد الشقة وتوسيع نطاق الفتنة شيوخ جهلة مرتزقة أئمة من كلتا الطائفتين السنّية والشيعة ... » .

وأيًّا كانت الجهالة أو العصبية فهى بلاء ابتليت به الأمة يتفجر بذاء وخصومات فى المناسبات - وفيما كان يقع بين مذاهب أهل السنّة مشابه منها - والمؤكد أن أئمة المذاهب منها براء . وأن الجيل الذى تعلم عليهم برئ من

التعصب أو الافتراء . وأن العلماء الصدق بعيدون عن متابعة السواد والبسطاء[1] .

* * *

وفقه المذهب غزير فى الإمامة مذ فتق الكلام فيها التلاميذ فى حياة الإمام وبعد مماته . مستندين إلى أحاديث للنبى ، ﷺ وعلى آله ، وردت فى كتبهم وفى كتب أهل السنّة ذاتها – ويرتبون عليها نظرية الإمامة . أما أهل السنّة فلهم فى شأن هذه الأحاديث وجهات نظر أخرى حول السند وحول المعنى اللازم .

إليك « بعض » الأحاديث :

يقول عليه الصلاة والسلام : « ياأيها الناس . إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا . كتاب الله وعترتى ، أهل بيتى »[2] ويقول : « إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى : كتاب الله حبل ممدود من السماء وعترتى أهل بيتى . ولن يفترقا حتى يردا على الحوض . فاظروا كيف تخلفونى فيهما »[3] ويقول : « إنى تارك فيكم خليفتين كتاب الله .. وعترتى أهل بيتى»[4].

ويقول : « إنى تارك فيكم التقلين كتاب الله عزّ وجل وعترتى .. فانظروا كيف تخلفونى فيهما »[5] أو « إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتى وإنهما لن يفترقا .. »[6] – ذلك أنه لما رجع عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع نزل

---

(١) يذكر الراغب الأصفهانى فى المحاضرات من قرون مضت : سئل رجل كان يشهد بالكفر على آخر عند جعفر بن سليمان فقال : إنه رجل معتزلى ، ناصبى . حرورى . جبرى . رافضى . يشتم علىّ ابن الخطاب . وعمر بن أبى قحافة . وعثمان بن أبى طالب . وأبا بكر بن عثمان . ويشتم الحجاج الذى هدم الكوفة على أبى سفيان . وحارب الحسين بن معاوية يوم القطائف فقال جعفر : « قاتلك الله . ما أدرى على أى شىء أحسدك . أعلى علمك بالأنساب أم بالأديان أم بالمقالات » .

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى عن جابر .

(٣) أخرجه الترمذى عن زيد بن أرقم .

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل بطريقين صحيحين وأخرجه الطبرانى .

(٥) أخرجه أحمد بن حنبل وآخرون .

(٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك وآخرون ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

بغدير خم يوم ١٨ ذى الحجة فى السنة العاشرة - والشيعة تعتبره عيدًا يسمى عيد الغدير - كان قد نزل عليه الوحى « ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك . وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . والله يعصمك من الناس » ، فأمر بدوحات فقممن فقال : « كأنى دعيت فأجبت .. إنى قد تركت فيكم الثقلين ، أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله تعالى وعترتى . فانظروا كيف تخلفونى فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض .. ثم قال : إن الله عزّ وجل مولاى . وأنا مولى كل مؤمن . ثم أخذ بيد علىّ وقال : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »[١] .

وابن حجر فى صواعقه يقرر أن لهذا الحديث طرقًا كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابيًا مع اختلاف فى المكان أهو غدير خم أم الطائف أم المدينة . أما طرقه عن أهل البيت فنحو ثمانين طريقًا .

وفى علىّ قوله ﷺ : « من أحب أن يحيا حياتى ويموت ميتتى ويدخل الجنة التى وعدنى ربى فليوال عليًا وذريته من بعده . فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم فى باب ضلالة »[٢] .

وفى أهل البيت قوله ﷺ : « ألا إن مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح . من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق . وإنما مثل أهل بيتى فيكم مثل باب حطة فى بنى إسرائيل . من دخله غفر له »[٣] ، وقوله : « النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتى أمان لأهل الأرض من الاختلاف »[٤] .

والشيعة مؤمنون بأنه لا ينقض حجة هذه الأحاديث على منزلة أهل البيت

---

(١) أخرجه الحاكم من طريقين عن زيد بن أرقم . وأخرجه مسلم فى صحيحه حتى كلمة الحوض مع خلاف فى بعض الكلمات .

(٢) مسند أحمد بن حنبل - ابن حجر - كنز العمال - وبهذا المعنى فى المستدرك .

(٣) الصواعق لابن حجر .

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس .

وفى مسند أحمد أن عمر كان أول المهنئين لعلى يوم الغدير . كما هنأه الصحابة الحاضرون .

ومكانة علىّ ، تأويلها من بعض أهل السنّة أو التشكيك فيها من البعض الآخر .

وآخرون يرونها سندًا صحيحا فى تكريم علىّ ولا يرونها سندًا فى الإمامة بالمعنى الذى يريده الشيعة .

* * *

ولقد كان الصحابة يجلون عليًّا كلّ الإجلال . والكثرة منهم لا تسلم له بأولوية الخلافة على سابقيه من الخلفاء . ثم جاء جيلٍ جديد أصبح فيه إنكار هذه الأولوية وسيلة للسلطة لتثبيت شرعيتها ، بل طريقاً إلى أصحاب السلطة ، يسلكه من يلتمسون المصلحة أو الجاه أو الراحة .

لكن الأمة بقيت على حبّ علىّ وأبنائه . وكثرتها ككثرة الصحابة فى إجلاله .

فالشافعى - أكبر عقلى علمى - يضع حب أهل البيت بين فرائض الدين ويذكر المسلمين بأن الصلاة على أهل البيت جزء من الصلاة لله .

يقول :

ياأهل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله فى القرآن أنزله
كفاكمو من عظيم القدر أنكمو من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

والإمام أحمد يقول : « ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ماجاء لعلىّ» وتشيّع أبى حنيفة محل إقرار أو إنكار . وهو القائل : «لولا السنتان لهلك النعمان » قاصدًا مدة دراسته على الإمام الصادق . ومالك ابن أنس من أنبه تلاميذ الإمام جعفر ذكرًا . والأربعة أئمة أهل السنّة .

أخرج أحمد بن حنبل عن عائشة : جاء رجل فوقع فى علىّ وعمار عند عائشة . فقالت : أما علىّ فلست قائلة لك فيه شيئًا وأما عمار فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول فيه : « لا يخيّر بين أمرين إلا اختار أرشدهما » .

ولقد كان عمار من أوّل حياته فى الإسلام ، حيث كان فى آخر يوم فى حياته فى الدنيا ، مع علىّ . وفى جنده مات فى صفين وهو فى التسعين . قتلته الفئة

الباغية عليه وعلى عليّ معه .

ولقد أوصى[1] النبى لعليّ أن يغسله ﷺ ويجهزه ويدفنه ويفى دينه وينجز وعده ، ويبرئ ذمته ويبين للناس ما اختلفوا فيه . وما ذلك إلّا لأن عليًّا منه ومن أهل بيته حيث هو .

من هذه المكانة لعليّ كان معه فى صفين ثمانون من الصحابة الأحياء كلهم بدريّ ، وهؤلاء من أهل الجنة .

أما معاوية فمعه الواهمون أو أهل الدنيا الذين يعدهم ويمنيهم ، لتصير الأمور إلى ما انتهت إليه فى أيامه وما بعد أيامه .

وأما الأمة فجعلت مكان معاوية من عليّ ، مثلًا سائرًا فى اللسان العربى . « وأين معاوية من عليّ » .

يقول الأحنف بن قيس : دخلت على معاوية فقدّم إلىّ الحارّ والبارد والحلو والحامض مما كثر تعجبى منه . ثم قدّم لونًا لم أعرف ماهو . فقلت : ما هذا ؟ قال : هذا مصارين البط محشوة بالمخ .. قد قلى بدهن الفستق . وذر عليه بالطبر زد ! فبكيت . فقال : مايبكيك؟ قلت : ذكرت عليًّا ...بينما أنا عنده وحضر وقت الطعام وإفطاره « إذ كان صائمًا » وسألنى المقام . فجيء له بجراب مختوم . فقلت : ما فى الجراب ؟

قال : سويق شعير . قلت : خفت عليه أن يؤخذ أو بخلت به ؟

قال : لا . ولا أحدهما . ولكنى خفت أن يلته الحسن والحسين بسمن أو زيت . فقلت : محرم هو ياأمير المؤمنين ؟

---

(١) ومن نصوص وصية النبى الصريحة بالإمامة لعليّ : عن محمد بن حميد الرازى - وقد وثقه الأئمة : أحمد ، ويحيى ، وابن جرير الطبرى ، والبغوى - عن أبى بريدة « لكل نبيّ وصىّ ووارث وإن وصيى ووارثى عليّ بن أبى طالب » ومثله - بالمعنى مروى عن سلمان الفارسى . وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة : « يا فاطمة . أما ترضين أن الله عزّ وجل اطلع إلى أهل الأرض فاختار اثنين أحدهما أبوك والآخر بعلك » وعن ابن عباس أن الرسول قال لها : « أما ترضين انى زوّجتك أوّل المسلمين إسلامًا وأعلمهم علما وأنك سيدة نساء أمتى كما سادت مريم نساء قومها ؟ أما ترضين يا فاطمة أن الله اطلع إلى أهل الأرض فاختار رجلين فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك ؟ » .

ومنها أن النبى يقول عن الحسين : « ابنى هذا إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تاسعهم قائمهم » .

قال : لا . ولكن يجب على أئمة الحق أن يعتدّوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلا يطغى الفقير فقره .

فقال معاوية : ذكرت من لا ينكر فضله .

* * *

يرى الشيعة أهل البيت ثانى الثقلين وأوّلهما القرآن ، والثقل كل خطير نفيس . وهم عدل القرآن فى الأمة ، وخلفاء الرسول فى الحفاظ على الشريعة . فللأئمة جميع ماله من المناصب ماعدا رتبة النبوة . ولديهم الكتب التى دوّن فيها علم النبوة ، وفيهم ينحدر الهدى النبوى ، وتنحصر الإمامة .

وأن الله سبحانه وتعالى يختار للنبوة من يشاء ويختار للإمامة من يشاء . ويأمر نبيّه بالنصّ عليه وتنصيبه للناس بعده للقيام بوظائفه ، إلّا أن الإمام لا يوحى إليه بل يتلقى الأحكام عن النبى مع تسديد السماء له ، فهو مبلّغ عن النبى ، فى حين أن النبى مبلغ عن الله جلّ شأنه .

والإمامية يرون الإمام إنساناً من البشر . لكنه أفضل أهل زمانه . ولا تجوز عبادته فهذا عمل من خداع إبليس . وأن من هذا شأنه يجب أن يكون معصومًا من الخطأ . فالناقص لا يكمل غيره . ووجه الحاجة إلى العصمة فيه وفى النبى واحد[1] . وهو حفظ الأحكام عن الخطأ . وإذ كان ذلك كذلك ، فما يرد عن الإمام سنّة . سواء أكان رواية عن النبى أم كان رأيه لأنه نصّ . أما ما لا يرد عن الإمام فهو محل للاجتهاد وفق القرآن والسنّة والإجماع والدليل العقلى .

أما ولاية الحكم ، فقد رأينا الإمام الصادق وآباءه لم يطلبوها كما لم يطلبها الأئمة بعده .

يقول الكاظم لهشام : « كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا » . فما أحراهم أن يتركوا للملوك ما يتناحرون عليه .

---

(١) يقول الشريف المرتضى فى كتابه « تنزيه الأنبياء » : « قالت الشيعة الإمامية : لا يجوز عليهم « الأنبياء » شىء من المعاصى والذنوب . كبيرًا كان أو صغيرًا لا قبل النبوّة ولا بعدها . ويقولون الأئمة مثل ذلك » .

ويعتبر الشيعة الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثنى عشر من أصول الدين عندهم وأنها « رديفة » التوحيد والنبوة ، وفى حين لا يوافق أهل السنّة على ذلك ، لا تكفر الشيعة أهل السنّة فى إنكارها هذا الأصل . ولا يكفّر أهل السنّة الشيعة باعتقادها فى الإمامة .

وإنما يشتدّ الخلاف من جراء الغلوّ فى الأئمة ونسبة أشياء إليهم يختلف فى بعضها أهل السنّة أنفسهم ، كالرجعة ، أو القدح فى بعض الصحابة ، كعمرو ومعاوية والمغيرة . أو يختلف فيها الشيعة أنفسهم كولاية المفضول ، والنصّ على الإمام بالاسم لا بالوصف . مما حدا بالأضداد والأشياع إلى تبادل أزمة الثقة . أما الفاقهون فأدخلوا خلافاتهم فى إطار ما يختلف فيه المجتهدون . وأما المتعصبون ، من كل ملّة ، فيتقاطعون .. وما يتقاطعون إلّا للمصلحة أو للغلواء أو لضيق الأفق[1] .

---

(١) دخل إبراهيم بن هرثمه على منصور فتهدّده لأنه يمدح أهل البيت . ولما خرج إبراهيم لقى علويًا سلم عليه فصاح به : لا تشط بدمى .

وفى سنة ٣٥٠ استعانت الجماهير بالجند ضد الشيعة . وفى سنة ٣٦٣ قتل الكثيرون من أجل إقامة الشيعة لشعائرهم . وفى سنة ٤٠٣ صدر مرسوم بلعن العلويين خلفاء مصر وإنكار نسبهم . وكانت موقعة الكرخ فتكًا بأموال الشيعة وأرواحهم وأطفالهم . وفى سنة ٤٣٩ كبست دار الطوسى ببغداد . وفى سنة ٤٤٨ و ٤٤٩ أحرقت مكتبة الطوسى فترك بغداد إلى النجف .

وعدوان المالكية على الشافعى فى جامع عمرو مشهور . وطرد المالكية والحنفية من أجل الشغب فى جامع عمرو بعد ذلك بأمر القاضى الحارث بن مسكين معروف . وكذلك فتنة الحنابلة فى مجلس الطبرى (٣١٠) وفى عهد البربهارى وفيما بعده وقد طالما أرهجت بغداد .

ومن الإزراء بالتعصب المذهبى تتردد على الألسن سخرية الزمخشرى ، وهو حنفى :

إذا سألوا عن مذهبى لم أبح به ... وأكتمه .. كتمانه لى أسلم
فإن حنفيا قلت ، قالوا بأننى ... أبيح الطلى وهو الشراب المحرم
وإن شافعيا قلت ، قالوا بأننى ... أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن مالكيا قلت ، قالوا بأننى ... أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم

ولقد طالما كفرت جماعة جماعة أخرى : بغيًا عليها أو تحاملًا منها فى التعبير عن الخلاف معها . كان نظام الملك (٣٨٥) وزيرًا عظيمًا : ينشر العلم وينشئ المدارس ، ويعمل للوحدة . ويحاول أن يجمع الخلافتين العباسية والفاطمية ، أى أهل السنّة والشيعة الإسماعيلية ، وكان يجتمع لديه علماء الفرق ، فدخل عليه عبد السلام بن محمد القزوينى شيخ المعتزلة وعنده أبو محمد التميمى ورجل آخر أشعرى ، فقال له : =

ومردّ عدم التكفير[1] بين الشيعة وأهل السنّة مع الخلاف فى الاعتقاد بالإمامة ، إلى أن الأصول - كما يقول الشيعة - ثلاثة : التوحيد ، والنبّوة ، والبعث - ويكفى من التوحيد الإيمان بوحدانية الله تعالى .. ويكفى من النبوة الإيمان بأن محمدًا ﷺ رسول الله صادق فيما أخبر به معصوم .. ويكفى من المعاد

= أيها الصدر . لقد اجتمع عندك رءوس أهل النار . أنا معتزلى وذلك أشعرى وهذا مشبه وبعضنا يكفر بعضا !!

وفى سنة ٤١٢ صدر مرسوم فى بغداد كفر به الخليفة القادر المعتزلة وأمر باستتابتهم ، وقد سبق منهم العمل عند الخلفاء لقهر المحدثين والفقهاء فى عصر المأمون والمعتصم والواثق .

وفى حياة الفيروزابادى الشافعى قامت الفتنة على الشافعية سنة ٤٧٩ . وفى سنة ٥٠٧ قال قاضى الحنفية بدمشق : لو كان لى من الأمر شىء لوضعت الجزية على الشافعية . وفى سنة ٥٦٧ قال أبو حامد الطوسى المقال نفسه فى الحنابلة ! وفى سنة ٥٥٤ حرقت الأسواق فى أصفهان لنزاع الحنفية والشافعية . وفى سنة ٤٦٩ هاج الحنابلة فى بغداد إذ ولى القشيرى الوعظ بالمدرسة النظامية ومن قبل ذلك بعام سنة ٤٦٨ انتقل السمعانى من مذهب أبى حنيفة إلى مذهب الشافعى فثار الحنفية بمدينة مرو فى خراسان فنفاه سلطانها حقنًا لدمه . وفى العصر ذاته أمر ابن تاشفين بإحراق كتب الغزالى فى احتفال رسمى بمسجد قرطبة !

وذات يوم رأى الوالى الحنفى فى بلاد ما وراء النهر فى مخرجه للصلاة فى الصباح مسجدًا للشافعية فقال : أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق ؟ وفى جيلان كان القوم حنابلة إذا قدم عليهم حنفى قتلوه ! وجعلوا ما له فيئًا للمسلمين ! وأما أهل الأندلس فكانوا مالكية يطردون من الأندلس الحنفى أو الشافعى أو الحنبلى إذا وفد عليها . فإن كان معتزليا فربما قتلوه ..

ومن سدّ الذريعة أفتى البعض بتعزيز من يترك مذهبًا لمذهب .

وفى القرن الثامن من الهجرة فصل من التدريس بمصر أبو العباس الحنبلى (٧١٦) لأنه ذكر أن عمر منع تدوين الحديث ، وأن ذلك كان سبب تعارض النصوص فى الحديث وخلاف العلماء .

وفى القرن العاشر علقت على باب زويلة رأس المولى ظهير المدين الأردبيلى لأنه قال : إن مدح الصحابة ليس بفرض !

وفى تركيا قتل فى عهد السلطان سليم الأوّل (٩٢٦) نحو أربعين ألفا من الشيعة .

وهكذا تدور رحى البطش فى كل اتجاه ، لكن لها قانونًا لا يتخلف هو أن الباطشين اليوم مبطوش بهم غدًا .

(١) أهل السنّة لا يكفّرون إلّا من يجحد فرائض الإسلام لأنه جاحد للأصل . يقول الغزالى : « اعلم أن شرح ما يكفر به ولا يكفر به يستدعى تفصيلًا طويلا . فاقنع الآن بوصية وقانون أماالوصية فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ، ما أمكنك ، ماداموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان . قسم يتعلق بأصول القواعد وقسم يتعلق بالفروع . وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر وما عداه فروع . واعلم أنه لا تكفير فى الفروع أصلًا . إلّا فى مسألة واحدة . وهى أن ينكر أصلًا دينيًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتواتر . لكن فى بعضها تخطئة كما فى الفقهيات .. » .

الاعتقاد بأن كل مكلف يحاسب بعد الموت .. أما الفروع التى هى من ضرورات الدين فهى كل حكم اتفقت عليه المذاهب الإسلامية كافة ، من غير فرق بين مذهب ومذهب كوجوب الصلاة .. فإنكار حكم من هذه الأحكام إنكار للنبوة وتكذيب لما ثبت فى دين الإسلام بالضرورة ..

وضرورات « المذهب الشيعى » نوعان .. نوع يعود للأصول وهو الإمامة . فيجب أن يعتقد كلّ « شيعىّ » إمامة الاثنى عشر إمامًا .. والنوع الثانى يرجع إلى الفروع كنفى العول ونفى التعصيب .. فمن أنكر فرعًا منها كان غير شيعى وإن كان مسلما .

والإيمان والإسلام عند الشيعة مترادفان . يثبتان لمن آمن بالتوحيد والنبوة والبعث . ويطلقان على معنى أخص هو هذه الأركان ومعها ركن العمل بدعائم الإسلام – وهى الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد – ويزيدون ركنًا خامسًا هو الاعتقاد بالإمامة ، وأنها منصب إلهى كالنبوة ، منصوص على من يليها . وأن الإمام أفضل أهل زمانه . ومعصوم . فمن اقتصر على الأركان الأربعة الأولى مسلم مؤمن . وإنما الاعتقاد بالإمامة له أثر فى منازل القرب والكرامة يوم القيامة .

يقول الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء : نعم يظهر أثر التدين « بالإمامة » فى منازل القرب والكرامة يوم القيامة – أما فى الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء . وبعضهم لبعض أكفاء . وأما فى الآخرة فلا شك أن المسلمين تتفاوت درجاتهم ومنازلهم حسب نياتهم وأعمالهم . وأمر ذلك وعلمه عند الله سبحانه . ولا مساغ للبتّ به لأحد من الخلق . والغرض أن أهم ما امتازت به الشيعة عن سائر فرق المسلمين هو القول بإمامة الأئمة الاثنى عشر . وبه سميت هذه الطائفة الإمامية . إذ ليس كل الشيعة تقول بذلك .. والقول بالاثنى عشر ليس بغريب عن أصول الإسلام وصحاح كتب المسلمين . فقد روى البخارى وغيره فى صحاحه حديث الاثنى عشر خليفة بطرق متعددة ، فيها بسنده عن النبى ﷺ : « أن هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر

خليفة .. »[1] .

(١) فى النصف الأول من القرن الحالى جرت « المراجعات » بين شيخ للأزهر وهو الشيخ سليم البشرى وبين الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوى (١٢٩٠ - ١٣٧٧) مدة إقامةالأخير بمصر ، وهى مراجعات أطراها الطرفان ونبت منها التزام المسلمين جميعا أصول الإسلام ، وسعة الفقه للخلاف حول الفروع .

ومن اتساع الفقه للخلاف وجدنا المأمون ، المعتزلى الفكر ، السنى الفقه ، يولى عهده عليًّاالرضا إمام الشيعة . ووجدنا الصاحب بن عباد الذى وزر للدولة البويهية ثمانية عشر عامًا من ٣٦٧ إلى ٣٨٥ وزيرًا معتزلى الفكر . دولة زيدية العقيدة ، تحكم دولة الخلافة السنية . ووجدنا الشريف الرضى نائبا للخليفة العباسى . كما وجدنا دولة الإدريسية دولة سنيّة يحكمها الادارسة وهم شيعة من نسل الحسن بن علىّ لكنهم لا يظهرون التشيع . وابن تومرت يقول إنه - كالأدارسة - من نسل الحسن بن علىّ ومع ذلك لا يقسر الدولة على التشيع . وكذلك بنى حمود من نسل الحسن بن علىّ يحكمون دولة سنيّة ولا يقسرونها على التشيع .. بل سنجد فقهاء عظماء - كالطوسى - حجة فى المذهب الإمامى وفى مذاهب أهل السنة .

وفى سنة ٥٢٥ عين الخليفة الفاطمى بمصر قضاة أربعة : ثلاثة من مذاهب السنّة ورابعًا شيعيًّا لأن الشعب كان سنيًّا والدولة شيعية . وكان الحافظ السلفى (٤٧٨ - ٥٧٦) يلقى دروس الشافعية فى مدرسة بناها له ابن السلام الوزير الفاطمى .

وفى النصف الأخير من القرن الحالى أفتى المرحوم الشيخ محمود شلتوت : « أن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعًا كسائر مذاهب أهل السنّة . فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك . وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب ، أو مقصورة على مذهب . فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلًا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقههم . ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات » .

وقال الشيخ شلتوت عن فتواه بعد .. « ثم تهيأ لى بعد ذلك - وقد عهد إلى بمنصب مشيخة الأزهر - أن أصدرت فتواى فى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول المعروفة المصادر المتبعة لسبيل المؤمنين ومنها مذهب الشيعة الإمامية « الاثنا عشرية » .. وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة ، فيقرر دراسة هذه المذاهب الإسلامية سنيها وشيعيها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان وتخلو من التعصب لفلان وفلان كما أنه اهتم فى تكوين مجمع البحوث الإسلامية بأن يكون أعضاؤه ممثلين لمختلف المذاهب الإسلامية » ..

والشيخ عبد المجيد سليم شيخ أسبق للأزهر يقول تحت عنوان « القطعيات والظنيات » : « قد علمنا من استقراء المذاهب الفقهية وآراء الفرق الكلامية أن فى كل منها خطأ وصوابا . ولم نعلم مذهبا من المذاهب الإسلامية المعتبرة خطأ كله أو صوابا كله . وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغى أن تطغى العصبية المذهبية على المسلمين . ولا ينبغى أن يكون همّ الحنفى مثلًا هو الانتصار لكل ما جاء فى مذهب الحنفية . ولا أن يكون همّ الإمامىّ أو الزيدى هو الانتصار والتعصب لكل ما جاء به الإمامية والزيدية . وهكذا . بل الواجب على المسلمين أن يأخذوا بما ظهر بالبرهان صوابه وأن يكون قصاراهم الرغبة الصادقة فى الوصول إلى الحق دون أن يقيموا وزنًا لما سوى الحق . بذلك يصبحون فعلًا أمة واحدة » .

والشيعة يعتقدون أن الأرض لا تخلو من حجّة على العباد من نبّى أو وصىّ ، ظاهر أو مستور . فالإمام « المهدىّ » الثانى عشر « غائب » منتظر .

والإمامة منصب دينى لا يجوز التنازل عنه لأنه من الله .

ولما تنازل علىّ للخلفاء السابقين عليه كان التنازل عن الخلافة الدنيوية ، وحدها ، وبناء على أسباب .

أمور خلافية فى الفقه

يظهر من استعراض كبريات مسائل الخلاف بين الشيعة وبين مذاهب أهل السنّة ، فى الفقه ، أنها لا تمس أصل الدين . وأنها تحتمل الاجتهاد ، وتتسع للخلاف عليها . كما اتسعت أمور أمثالها للخلاف بين مذاهب أهل السنّة ذاتها – إلّا زواج المتعة . فالخلاف فيه يتميز مما عداه :

أما الفرائض الدينية فواحدة عندهم وعند أهل السنّة .

فى « الصلاة » : الفروض واحدة لدى أهل السنّة ولديهم . وعدد الركعات فيها واحد . أما المندوب عندهم فلا حصر له . وأفضله عندهم « الرواتب » ، وعددها « على المشهور » ثمانية للظهر وثمانية للعصر قبل الفريضة وأربع للمغرب بعد الفريضة وللعشاء ركعتان جالسًا ويجوز قائمًا وثمانى ركعات صلاة الليل وركعتا الشفع وركعة الوتر وركعتا الصبح قبل الفريضة .. فالرواتب عندهم كثيرة .. ويشترطون القراءة فى الصلاة باللغة العربية . ولا يجيزون الترجمة . ويشترطون الجهر بالبسملة .

وفى « الزكاة » ، ووجوه البر ، لا يختلفون عن جهور المسلمين . بل هم يضيفون إليها « خمس » الدخل ، الذى يجبى للإمام ، لإنفاقه فى مصارفه الدينية .

وفى « الصوم » : يرون الكذب على الرسول يفطر الصائم .

وفى « الحج » : جهاد لا يسقط بالموت بل يؤديه الوارث عن مورثه . وللغير

أن يؤديه عنه من مال للمورث قبل أن تقسم التركة .

ويكثرون من مظاهر « الروح الإسلامى » فى العقود . فيستحبون البدء بالبسملة فى كل معاملة ، ويحرصون على الصيغة العربية . ويكرهون معاملة تارك الصلاة والمستهتر . ويحرمون الاتجار بما يترتب عليه فساد المجتمع .

وفيمايلى أنواع خلاف بينهم وبين أهل السنّة ، لعلها تبين الإطار العام أو المعالم المهمة ، للوفاق وللخلاف بين الفريقين .

١ - الجمع بين الصلاتين :

المسلمون مجمعون على جواز الجمع فى الحج فى جبل عرفة بين الظهر والعصر وفى المزدلفة بين المغرب والعشاء للحجاج خاصة - أما غير ذلك فمحلّ خلاف .

فالشيعة يجيزون الجمع مطلقًا جمع تقديم وتأخير . لعذر وغير عذر . فى السفر والحضر . وإن كان التفريق عندهم أفضل - إلّا إذا حدث حرج .

وحجّة الشيعة مشتقّة من صحاحهم ومن تفسير الإمام الصادق لقوله تعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) .

فالغسق هو تراكم الليل واشتداد الظلمة . وبهذا تكون أوقات الصلاة الأربعة ممتدة من الزوال إلى نصف الليل . فالظهر والعصر ينتهيان فى الغروب . والمغرب والعشاء إلى نصف الليل . أما الصبح فقد اختصّها الله بقوله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) .

٢ - الأذان :

كان بلال - مؤذن الرسول - يؤذن لصلاة الصبح فيقول بعد « حى على الفلاح » « الصلاة خير من النوم » . وأقره الرسول على ذلك .

والشيعة يقولون إن الأذان كان فيه « حى على خير العمل » حتى عهد عمر - كما قال الإمام الباقر. وسبب رفعها من الأذان أن المؤذن وجد عمر نائما

عند أذان الصبح فأضاف « الصلاة خير من النوم » - كما أورد الزرقانى فى تعليقه على الموطأ - فاستحسنها عمر فأمر أن تضاف إلى أذان الصبح . وأخرج ذلك ابن أبى شيبة[1] .

وعلماء الشيعة متفقون على أن قول : « أشهد أن عليًّا ولىّ الله » ليس من فصول الأذان وأجزائه . وأن من يأتى به بنيّة أنه من الأذان فقد أبدع فى الدين ، أى أدخل فيه ما هو خارج عنه .

ويقول الشيعة : إن إسقاط « حى على خير العمل » . كان بأمر من أولى الأمر فى عهد عمر ، حرصًا منهم على أن تفهم العامة أن الجهاد فى سبيل الله هو خير العمل ، وأن النداء على الصلاة بخير العمل مقدمة لفرائضها الخمسة ينافى التحريض المطلوب للجهاد . فخطب عمر فنهى عنه[2] .

---

(١) الشيعة يستدلون على أن الاذان كان فيه عبارة « حى على خير العمل » بما هو ثابت بالسند الصحيح عن الإمام جعفر « لما هبط جبرائيل على رسول الله بالأذان أذن جبرائيل وأقام وعندها أمر رسول الله عليًا أن يدعو بلالاً فدعاه فعلمه رسول الله الأذان وأمره به » وكان أذان الإمام جعفر هكذا :

الله أكبر الله أكبر الله أكبر
أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن محمدا رسول الله . أشهد أن محمدا رسول الله
حى على الصلاة . حى على الصلاة
حى على الفلاح . حى على الفلاح
حى على خير العمل . حى على خير العمل
الله أكبر الله أكبر
لا إله إلا الله

(٢) وقد تعاقبت التصرفات فى صدد الأذان من المسلمين . كان عليه الصلاة والسلام يأمر فى فجر رمضان بأذانين أولهما يوقظ الغافلين ليتسحروا . والثانى للصلاة . وكان أذان الجمعة فى عهده يبدأ عندما يجلس على المنبر . وهو الأذان الوحيد الذى يؤدى من مكان مرتفع بالمسجد أو القرية كسقفه ومنارته . فلما كثر الناس فى عهد عثمان استحدث نداء آخر على الزوراء وبقى النداء الأول كما كان - وفى عهد هشام ابن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥) اكتفى بآذان المنارة . ونقل الأذان الثانى وجعله بين يدى الخطيب . هذا وليس الكلام القليل بين يدى الخطيب ، ولا عند الأذان ، ليبطله .

٣ - المسح على الرجلين :

يختلف الناس فى أن مسح القدمين هو الفرض أو الغسل هو الفرض ، لأن رسول الله - ﷺ - توضأ ومسح على قدميه . والشيعة تستدل بمسح الرسول على قدميه على أن المسح هو الفرض - ومروى عن ابن عباس أنه قال : ما صحّ عن رسول الله إلّا غسلتين ومسحتين . ويفسرون الآية (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) بما يسعفهم فى المسح .

٤ - الزواج والطلاق :

فى الزواج :

- المهر لا يقدر قلة ولا كثرة : إلّا أن يقصر عن التقويم كأن يقول حبة قمح ! أما الكثرة ففيها قول الله : (وآتيتم إحداهن قنطارا) ، وإن كان يكره تجاوز مهر السنة الذى أصدقه النبى زوجاته وهو خمسمائة درهم .

- ويجوز النظر إلى وجه المطلوب زواجها دون استئذان ومع الوجه الكفين . وينظرها قائمة وماشية . وللمرأة أن تنظر إلى الرجل - ولا يجوز العزل عن المرأة إلّا بإذنها .

- وللمرأة - بكرًا أو ثيبًا - أن تزوج نفسها ممن تريد إذا بلغت رشدها . وإن كان من المستحسن أن تستأذن وليّها فى ذلك .

فى الطلاق :

- أما الطلاق الثلاث بفم واحد : فجعله عمر ثلاثًا زجرًا للناس . وبقى الأمر كذلك ثلاثة عشر قرنًا ظهر فيها ما أحوج إلى العودة إلى الأمر الأوّل . والشيعة لم يقبلوا عمل عمر من بادئ الأمر . فالطلاق الثلاث فى مجلس واحد يقع مرة واحدة .

ولا حلف عندهم بالطلاق على عمل . وهذان إصلاحان أحدثتهما مصر فى سنة ١٩٢٩ .

– وهم يوجبون حضور شاهدين للطلاق ، فى حين لا يوجبون حضور شاهدين للزواج . فالزوجية تنشأ دون شهود . لكن الطلاق واجب له الشهود . والمتفقهة الآن من أهل السنّة فى مصر يستحسنون إيجاب حضور شاهدين للطلاق ، بل هذا تعديل مطلوب فى مشروع قانون للأحوال الشخصية .

– وهم يمنعون طلاق المغضب . والمهيج والمنزعج . ويقررون أن الطلاق الذى أمر به الله ورسوله هو الذى يقع إذا حاضت المرأة وطهرت من حيضتها ، فأشهد الرجل شاهدين عدلين قبل أن يجامعها على تطليقة . ثم هو أحق برجعتها ما لم تحض ثلاثاً . فإن مضت ثلاثة قروء قبل أن يراجعها فهى أملك لنفسها فإن أراد أن يخطبها مع الخطاب خطبها . فإن تزوّجها كانت عنده .

– وليس للمريض أن يطلق . وله أن يتزوج . فإن تزوج ودخل بها فجائز . وإن لم يدخل ومات بطل الزواج . ولا مهر ولا ميراث للزوجة .

فلنلاحظ اليسر فى الزواج عندهم . والتشدّد فى الطلاق . ورعاية المرأة فى كل حال والحرص على الأسرة .

٥ – زواج المتعة : « إلى أجل معين » :

والشيعة يسمونه الزواج المؤقت . ويرجعونه إلى قوله تعالى : (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) . والمفسرون متفقون على أن جماعة من الصحابة العظماء أفتوا بإباحتها منهم ابن مسعود وأبى بن كعب وابن عباس وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين . بل كانوا وهم يتلون الآية ينطقون بتفسيرها فيقرءون (فما استمتعتم به منهن) ، (إلى أجل مسمى) . فالمشروعية ثابتة والعمل بها ثابت .

وإنما يجزم أهل السنّة بأنها أبيحت لدواعيها ثم نسخت بأحاديث جازمة . والشيعة لا يرونها أحاديث ثابتة . ويقولون إن الحلال القطعى الثبوت لا ينفيه تحريم غير قطعى .

وهم يقولون : إن المتعة سائغة فى السفر لطلب العلم والتجارة والجهاد ، فلقد

كانت مشروعيتها للسفر والجهاد . وإنها زواج عادى ، لولا أنه إلى أجل . فالزوجة فى زواج المتعة تعتدّ إذا انتهى الأجل ، ككل طلاق . ولابدّ من المهر .. والابن من الزواج هو ابن عادى ، وله الميراث والنفقة . أما الزوجة فلا نفقة ولا ميراث لها ، إلّا إذا اشترطت . وليست النفقة من لوازم الزوجية ، فالناشز زوجة ولكنها بلا نفقة . ومن النساء من ترث وليست زوجة . كمن طلقت فى مرض الموت ومات زوجها قبل مضى سنة .

والثابت أن عمر أعلن تحريم المتعة إذ خطب الناس فقال : « متعتان كانتا على عهد رسول الله - ﷺ - وعلى عهد أبى بكر ، رضى الله عنه ، وأنا أنهى عنهما .. » وأنه حرمها وهو بصدد قضية لعمرو بن حريث ثم أطلق النهى .

وأهل السنّة يقررون أن نهى عمر عنها كان إعلانًا لتحريم ثابت قبل ذلك .

ولم تقبل الشيعة نهى عمر من بادئ الأمر بل قال علىّ : « لولا نهى عمر عن المتعة ما زنى إلّا شفا « قليل أو مشف على الهلكة » أو سفىّ » .

وثبت عن الإمام الصادق قوله : ثلاث لا أتقى فيهن أحدا متعة الحج ومتعة النساء والمسح على الخفين .

ومن نوادر يحى بن أكثم قاضى المأمون أنه سأل شيخًا من أهل البصرة بمن اقتديت فى جواز المتعة ؟ قال : بعمر . قال : كيف وكان من أشدّ الناس فيها ؟ قال : إنه صعد المنبر فقال : أيها الناس . متعتان أحلهما الله ورسوله لكم . وأنا أحرمهما عليكم وأعاقب عليهما . فقبلنا شهادته ولم نقبل تحريمه[1] .

---

(١) كان يحيى مع المأمون عندما رأى - وهو على رأس جيشه لمحاربة الروم - جواز المتعة ، فهى أول ما شرعت شرعت فى الحرب ، فأمر فنودى بتحليلها للمحاربين . قال يحيى لصاحبين كانا معه فى سفر المأمون : بكرا إليه غدا فإن رأيتها للقول وجها فقولا . وإلا فأمسكا حتى أدخل . فدخلا عليه فسمعاه مغتاظا يقول متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبى بكر وأنا أنهى عنهما . ومن أنت .. حتى تنهى عما فعله رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه ؟ « يقصد عمر بكلامه » - فأومأ أحد الرجلين لصاحبه وقال : رجل يقول فى عمر بن الخطاب .. نكلمه نحن ! وأمسكا حتى جاء يحيى .. فقال المأمون ليحيى : مالى أراك متغيرًا ؟ قال : هو غمّ يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام .

قال المأمون : وما حدث فى الإسلام ؟

قال : النداء بتحليل الزنا . =

الميراث :

للشيعة تفسير فى المواريث فى صالح البنات ، لذواتهن ، ولمن يتوسل للميراث بهن .

= قال المأمون الزنا !

قال نعم المتعة زنا – قال تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أزوجة المتعة ملك يمين ؟ قال : لا . قال : فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث ... ولها شرائطها ؟ قال : لا . قال يحيى : فقد صار متجاوز هذين من العادين . وهذا الزهرى روى عن عبد الله والحسن ابنى محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علىّ بن أبى طالب قال : أمرنى رسول الله ﷺ أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها .

وقال المأمون : محفوظ هذا من حديث الزهرى ؟

قال يحيى : رواه جماعة منهم مالك . قال : استغفر الله نادوا بتحريم المتعة .

ولا غرابة فى أن يعدل المأمون . فلقد طالما جلس هو وأخوه الأمين وأبوهما – الرشيد – فى حلقة مالك .

ولى يحيى القضاء فى البصرة وعمره نحو عشرين سنة . فاستصغره أهل البصرة : قال لهم : أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذى وجه به النبى قاضيًا على مكة يوم الفتح . وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذى وجه به النبى قاضيًا على مكة يوم الفتح . وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذى وجه به النبى قاضيًا على اليمن . وأنا أكبر من كعب بن أبى الذى وجه به عمر قاضيا على البصرة .

وكان يحيى حسن التأتى للأمور ومنها سياسة القضاء والخلفاء : دخل على المأمون رجل يشكو وكيلاً للمأمون أن اشترى منه جواهر بثلاثين ألف دينار . فقال المأمون : لعل الوكيل اشترى لنفسه أو سلم الشاكى المال .. قال الشاكى : فإذن أدعوك إلى القاضى الذى نصبته لرعيتك . وجىء بيحيى بن أكثم . فقال للمأمون : إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء : قال : قد فعلت : قال : فإنى أبدأ بالعامة أولا يصلح المجلس للقضاء ... ففتح الباب – وقعد فى ناحية من الباب وأذن العامة . ثم دعى بالرجل . فقال له يحيى ما نقول ؟ قال : أقول : أن تدعو بخصمى أمير المؤمنين .

فنادى المنادى فإذا المأمون قد خرج ومعه غلام يحمل مصلّى حتى وقف على يحيى وهو جالس . فطرح المصلى ليقعد عليها فقال له يحيى : ياأمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس .. فطرح للرجل مصلى آخر ، ثم نظر فى دعوى الرجل . وطالب الرجل المأمون باليمين فحلفها المأمون .

ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه . قال المأمون : ما أقامك ؟ قال إنى كنت فى حق الله جلّ وعزّ حتى أخذته منك . وليس الآن من حقّى أن أتصدر عليك ..

فأمر المأمون أن يحضر ما أدعى الرجل من المال فقال له : خذه إليك والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلاّ خوفًا من هذه الرعية لعلّها ترى أنى تناولتك من وجه القدرة وإنها لتعلم الآن أنى ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال .

يقول تعالى : (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت . فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك . وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين) - وهم يرون البنت ولدًا فى اللغة والعرف ، ولذلك يعطون البنت دائمًا . ولا يعطون الأخت أو الأخ إن كان هناك بنت أو ابن فكلاهما ولد . وهم يسقطون الوصية مادام هناك ولد « ابن أو بنت » .

وللشيعة قاعدة : أن كل فريضة لم يهبطها الله إلّا إلى فريضة ، تكون مقدمة عند « العول » . وكل فريضة ، إذا زالت عن فرضها ، لم يكن لها إلّا ما بقى ، تكون مؤخرة .

مثال ذلك للزوج النصف فإن هبط له الربع . فإن دخل عليه فى التقسيم ما يزيد عن السهام رجع إلى الربع المفروض . ولا يزيله عن الفرض شىء . ومثله الزوجة والأم . أما البنات والأخوات فلهن النصف والثلثان . فإذا أزالتهن الفرائض عن ذلك لم يكن لهن إلّا ما بقى . فإذا اجتمع ما قدم الله وما أخرّ بدئ بما قدم الله فأعطى حقه كاملاً . فإن بقى شىء كان لما أخر . وهو تطبيق لحديث ثابت عندهم . أورده الشهيد الثانى - وأورده الحاكم فى المستدرك وقال إنه صحيح على شرط مسلم - ويستشهد أهل السنّة بآيات ويستشهد الشيعة بآيات .

وهم ينفردون بما يسمى « الحبوة » للولد الأكبر : ملابس أبيه وثيابه ومصحفه وخاتمه زيادة على حصته فى الميراث - كما ينفردون بعدم توريث الزوجة من عقار الزوج ورقبة الأرض عينًا وقيمة ، لأخبار وردت عن الأئمة مروية عن النبى .

٧ - متعة الحج :

ينشئ الحاج إحرامه من ميقاته « أماكن القصد إلى البيت الحرام » والمتمتع يأتى مكة ويطوف بالبيت . ثم يقصر ويحلّ من إحرامه ويقيم بعد ذلك حلالاً . ثم

يفيض إلى المشعر الحرام . ثم يأتى بأفعال الحج بإحرام جديد . وهذان التقصير والإحلال تيسير بإباحة محظورات الإحرام فى المدة المتخللة بين الإحرامين . وهذا ما كرهه عمر وحرمه قائلاً : هى سنّة رسول الله لكنى أخشى أن يعرسوا بهن - نسائهم - تحت الأراك ثم يروحون بهن حجاجًا . فخطب ونهى عن هذه المتعة مع متعة الزواج .

ومع ذلك فابن عمر يقول عن عمل أبيه : أرأيت إن نهى عنها أبى وصنعها رسول الله أأمر أبى أتبع أم أمر رسول الله ؟ وابن عباس كعلىّ لا يحرمان ما حرّمه عمر .

ولما قدم علىّ من اليمن وجد فاطمة الزهراء قد حلّت ولبست صبيغًا ، واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها فقالت : إن أبى أمرنى بهذا . فذهب إلى رسول الله فقال : صدقت صدقت .

والشيعة لهذا يرون متعة الحج .

٨ - التفسير بالتأويل :

يروى الشيعة عن النبى أنه قال : « إن للقرآن ظاهرًا وباطنًا ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن » . ويروون عن علىّ أنه قال : « ما من آية قرآنية . إلّا ولها ظاهر وباطن . وحدّ ومطلع » ويروى هذا البيان عن « سهل التسترى » ، من المفسرين الصوفيين . وأنه أضاف : فالظاهر التلاوة . والباطن الفهم . والحدّ حلالها وحرامها . والمطلع إشراف القلب على المراد به فقهًا عن الله عزّ وجل .. قيل له : ما الباطن ؟ قال : فهمه .

ويروون عن الإمام الصادق أنه قال : « إن فى كتاب الله أمورًا أربعة . العبارات والإشارات ، والحقائق واللطائف . فالعبارات للعوام . والإشارات للخواص . واللطائف للأولياء . والحقائق لأنبياء الله » .

والمتتبع لتفسيرات الإمام الصادق وأجوبته على المسائل يجدها تنبع من بحر عميق فى فهم القرآن واللسان العربى، امكنه ان يكشف للناس بين الفينة والفينة

ما فيه من شمول وما بينه وبين السنّة من صلة الأصل بفرعه . وبذلك قدر الإمام أن يفسر القرآن بالقرآن – ففى بيته نزل – وأن يجد للحديث الواحد أصولا عدّة ، فى آيات متفرقة ، بمجرد أن يدلى إليه سائل بسؤال ! وهو منهج سيتتابع عليه عظماء الأئمة من أهل السنّة . وفى طليعتهم أحمد بن حنبل .

ولا يسوغ لنا أن نعتبر تفسيرات الصادق من أضرب التفسير بالرأى أو بالمأثور أو بهما – وهى مصنفة بين عقلى ونقلى وصوفى ورمزى وقصصى .. إلخ – وفى البعض منها تأويل باطنى .

وابن عطية من كبار مفسرى أهل السنّة ينفى صحة نسبة تفسير باطنى أو رمزى إلى الإمام الصادق ، ويقول : « .. وهذا قول جار على طريقة الرموز . ولا يصحّ عن جعفر بن محمد – رضى الله عنه – ولا ينبغى أن يلتفت إليه » .

وإليك مثلاً – بين نظائر تجلّ عن الحصر – لاستعمال اللسان العربى فى التفسير : يقول زرارة للإمام الصادق – من أين علمت أن المسح ببعض الرأس ؟ ويجيب الإمام : لمكان الباء فى قوله تعالى : (وامسحوا برءوسكم) . يقصد أن الباء للبعضية .

ولقد تتابع على هذا التفسير الأئمة فى اللغة والفقه . جاء فى المصباح المنير فى مادة « بعض » أن الباء فى قوله تعالى : (وامسحوا برءوسكم) للتبعيض .. ونصّ على مجيئها للبعض ابن قتيبة .. وأبو على الفارسى وابن جنى . وذهب إلى مجىء الباء بمعنى البعض الشافعى وهو من أئمة اللسان . وقال بمقتضاه أحمد وأبو حنيفة .

ومن استعمال ظاهر اللسان العربى تفسير « الكوثر » بأنه الذرية الكثيرة . فى قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر) . فهى صيغة مبالغة من الكثرة «فوعل» يؤيد ذلك الآية التى تجىء فيما بعد (إن شانئك هو الأبتر) والأبتر من لا عقب له . وبهذا ساغ تفسير الشيعة بأن الكوثر هو الذرية . وقد رزق الله النبى الذرية الكثيرة من فاطمة . فهى الكوثر المقصود . والآخرون يقولون : إن الكوثر نهر فى الجنة . وغيرهم يؤولونه بأنه النبوّة .

ولقد أسلفنا طائفة من تفسيرات الإمام ، كالخوف من عدم العدل بين النساء ، والإنفاق من رزق الله ، ورؤية الله جلّ شأنه ، وقتل النفس بإخراجها من الهدى إلى الضلال ، والتفسيرات التى جعلت أبا حنيفة يقول عن آية : (وما نقموا إلّا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) لكأنى ما قرأتها قط فى كتاب الله ولا سمعتها إلّا فى هذا الموقف . وهى جميعًا صادرة عن فهم دقيق للسان العربى الذى نزل به القرآن .

والتفسير بالظاهر ممن يفهم البلاغة العربية ، ومجازاتها المتعددة ، والاستعارة ، والإيجاز اللفظى ، وهو بعض خصائص الإعجاز البيانى فى القرآن ، لا ينفى استعمال العقل ، بل فيه مجال واسع له . ولا ينفى القيمة العظيمة لتفسير الزمخشرى المعتزلى ، وهو حجّة فى اللغة ، وحجّة فى الجمع بين الظاهر وبين وجوه « الرأى » ، بالمعانى الدقيقة وأسرار البلاغة[1] .

وممن أثارهم الإعجاب به الإمام يحيى بن حمزة العلوى (٧٤٩) صاحب كتاب الطراز .

وما من تفسير ثبت عن إمام عن أهل البيت إلّا تلقته العقول بالقبول ؛ لأنه لا يغاير النصّ من القرآن والسنّة . وإنما يشرحهما فى نورانية باهرة[2] ، فى حين

---

(١) يؤوّل المعتزلة الألفاظ ليفسروا معانى الآيات طبقًا لأصولهم . وعلى ذلك أولوا الآيات التى قد تنم عن التشبيه والجهة الجسمية .

والتفسير بالرأى يقوم على قاعدة كصمام الأمان للذين ينهجونه . فبالكتاب آيات محكمات وأخر متشابهات والمحكمة آيات لا يتمارى فى معناها أحد . فإذا وردت آية متشابهة فسرت على أساس الآية المحكمة . مثل قوله تعالى : (إلى ربها ناظرة) تفسّر على أساس قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) فيكون معناها الرضى عنها وتوقع النعمة من الله . ومثل قوله : (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) تفسّر على أساس قوله : (إن الله لا يأمر بالفحشاء) . وأكثر المؤوّلين يلجئون للمجاز . وفى القرآن كثير منه مثل قوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم) فمعناها القدرة - وهم ككل المفسرين - يبدءون من أن الله تعالى ليس كمثله شىء . أما التفسير بالمأثور فتتصدره مدرسة الإمام الطبرى : يجمع الأقوال والآثار ويختار منها .

(٢) إليك مثلاً تفسير « الإمام العسكرى » للحروف المقطعة مثل (ا . ل . م ..) فى فواتح =

أن المعتزلة يؤولون ليخضعوا المعنى لأصولهم الخمسة[1] . وهذا خلاف عظيم بين المؤولين وبين الإمام جعفر والشيعة الإمامية .

أما الإسماعيلية - فلهم بعض التأويلات الباطنية التى تهمل المعنى الظاهر وتحمّل الألفاظ ما لا تحمله .

والإسماعيلية فرقة شيعية لم تظهر إلّا بعد موت الإمام جعفر بقرن أو أكثر .

٩ - البداء : ومفهومه الشائع : الظهور بعد الخفاء :

نسب إلى الشيعة القول بأن الله يبدو له فيغير ما قرره لظهور طارئ . وأطلقوا على ذلك لفظ البداء . والشيعة الإمامية لا تقول شيئًا بهذا المعنى - بل تعتقد أن الله عالم بكل شىء ... وعلمه أزلى بما كان وما يكون . يقول الإمام الصادق : « ما بدا لله فى شىء إلّا كان فى علمه قبل أن يبدو له » وسأله منصور ابن حازم .. هل يكون اليوم شىء لم يكن فى علم الله بالأمس ؟ قال : « لا .. من قال هذا فقد أخزاه الله » قال منصور : ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس فى علم الله ؟ قال : « بلى قبل أن يخلق الخلق » ويروى عنه قوله : « إن الله لم يبد له عن جهل » .

= السور يراها تنبيهًا على أن هذا الكتاب الذى أنزله الله هو هذه الحروف المقطعة . وأنه بلغتكم وهجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين . وما يزال هذا التفسير فى طليعة تفسير الحروف المقطعة فى أوائل السور .

(١) أصول المعتزلة الخمسة :

١ - التوحيد الذى ينفى عن الذات صفات الأجسام والمكان . وأهل السنّة يرون صفات الله خاصة به وأنه تعالى « كما وصف نفسه » . فليس فى ذلك تشبيه لله بخلقه .

٢ - العدل وفحواه أن الله لا يأمر إلا بالحسن ولا ينهى إلا عن القبيح وما يفعله الناس عمل من أعمالهم ولذلك يثابون ويعاقبون . وأهل السنّة يقولون : إن الله خالق العمل والعبد كاسب له .

٣ - الوعد والوعيد أو الثواب والعقاب ملازمان للفعل وأهل السنّة يرون التوبة قد يقبلها الله من مرتكب الكبيرة .

٤ - المنزلة بين المنزلتين . فمرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر بل فاسق وإن كان عقابه أقل من الكافر .

٥ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع اشتدادهم فى ذلك عندما كانت السلطة فى أيديهم .

فجميع الكائنات الممكنة ، قبل أن تخلق ، قدرها الله تعالى وكتبها بمشيئته وإرادته فى اللوح المحفوظ . والله تعالى يقول : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) وكل ما يتعلق به القضاء ، والتقدير ، لابدّ له من تعلق الإرادة والمشيئة به . وما لا يكون قضاؤه وتقديره حتميًّا مما هو مورد المحو والإثبات تتعلق المشيئة بمحوه وإثباته . وقد يكون وجوده ، وتكوينه بإرادة الله تعالى ، منوطًا أى مشروطًا ، بتحقق أمر آخر . فيكون قد جرى فى علمه تعالى أن يوجد إذا حصل ما اقتضت المصلحة ، التى يعلمها الله ، أن تكون شرطًا .

والله تعالى يقول : (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا) ويقول : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) .

وروى أحمد فى المسند إن النبى قال : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه . ولا يردّ القدر إلّا الدعاء . ولا يزيد فى العمر إلّا البرّ » .

وعن أبى سعيد أن النبى قال : « ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلّا أعطاه إحدى ثلاث : إما أن يستجيب لدعوته أو يصرف عنه من السوء مثلها أو يدخر له من الأجر مثلها . قالوا : يا رسول الله إذن نكثر . قال : الله أكثر » .

ومن القضاء علم مخزون لا يطلع الله عليه أحدًا . فلا بداء فيه . وقضاء أخبر به ملائكته ورسله . فهذا أيضًا لا بداء فيه . وقضاء معبر عنه بلوح المحو والإثبات . وفى هذا القسم يرد قول الشيعة بالبداء (يمحو الله ما يشاء ويثبت) .

والشهرستانى ينفى عن الإمام جعفر ما ينسب إليه من أقوال فى الغيبة والبداء بمعنى تغيير إرادة الله .

١٠ - الرجعة :

القول « برجعة » « المهدى » المنتظر ليس مجمعًا عليه فى الفكر الشيعى .

فمنهم من لا يعتبرها عقيدة . ومنهم من يأخذ بها ، كما أخذ بعض أهل السنّة ، ببعض أنباء الغيب وحوادث المستقبل وأشراط الساعة . مثل نزول عيسى من السماء ، وظهور الدجال الذى يظهر قبل الإمام بقليل فيقتله الإمام ، وخروج السفيانى – الذى يخرج من الوادى اليابس حتى ينزل بدمشق ، فذلك اختراع لحساب بنى أمية فى الأندلس . وثمة سفيانى قيل إن خالد بن يزيد اخترعه لحساب بنى أمية ضدّ بنى مروان . ومن قبلهم وجد « القحطانى » المنتظر – رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه – بل ادعى عبد الرحمن بن الأشعث أنه القحطانى المنتظر .

بل إن سعيد بن المسيب علّامة التابعين يعتبر عمر بن عبد العزيز المهدى المنتظر « للمدينة » . وقد سمى العباسيون لهم مهديا « الخليفة المهدى بن المنصور » .

وأبو جعفر المنصور يقول عن محمد النفس الزكية : « هذا مهدينا أهل البيت » . ولقد سمى الكثيرون من يتولونهم بالمهدى .

فأتباع محمد بن الحنفية لقّبوه بالمهدى . وابن صرد يلقب الحسين بالمهدى . وأشياع المختار الثقفى لقّبوه بالمهدى .. بل إن كثرة الزيدية يقولون إن كل واحد من الأئمة مهدى . فزيد مهدى . وابنه يحيى مهدى . ومحمد بن عبد الله ابن الحسن « النفس الزكية » مهدى . وكل فاطمى شجاع عالم زاهد يدعو إلى الحق بالجهاد فهو لدى الزيدية إمام « مهدى » [1] .

---

(١) يقول الإمام محمد آل كاشف الغطاء من أئمة الشيعة « الإمامية » المعاصرين : « وليس التدين بالرجعة فى مذهب الشيعة بلازم . ولا إنكارها بخسار وإن كانت ضرورية عندهم ولكن لا يناط التشيع بها وجودا أو عدمًا » .

ويقول : « وحديث الطعن بالرجعة كان هجيرى علماء السنّة .. فكان علماء الجرح والتعديل إذا ذكر بعض العظماء من رواة الشيعة ومحدثيهم ولم يجدوا مجالاً للطعن فيه لوثاقته وورعه وأمانته نبذوه بأنه يقول بالرجعة فكأنهم يقولون يعيد صنما أو يجعل له شريكا . ونادرة مؤمن الطاق مع أبى حنيفة معروفة . وأنا لا أريد أن أثبت فى مقامى هذا ولا غيره صحة القول بالرجعة وليس لها عندى من الاهتمام قدر قلامة ظفر .. » .

ومن الناس من ينتظر عودة من يسمونهم كذلك .

وفى مسند أحمد بن حنبل : سمعت عليًّا يقول : قال رسول الله : « لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم بعث الله عزّ وجل رجلاً منّا يملؤها عدلاً كما ملئت جورًا » .

ويقول بعض الشيعة : إن عقيدة البعث أصل مجمع عليه ، وإنه عندما يؤخذ القول بالرجعة على أنها بعث فلا وجه لنفى العدالة عمن يفهمها كذلك[1] .

ولقد رددت كتب السنن الكلام فى المهدى وظهوره . ومنها سنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه . ولم يرد ذكره فى صحيحى البخارى ومسلم . وتكلم البعض فى إسناد الأحاديث المروية فى السنن . وفى الوقت ذاته نجد السيوطى فى كتابه « العرف الوردى فى أخبار المهدى » وابن حجر فى كتابه : القول المختصر فى أخبار المهدى المنتظر « وهما من فحول علماء أهل السنّة » ، وآخرين غيرهم . يكتبون عن المهدى ، ويروون أحاديث فى ظهوره .

وفى تفسير الأحاديث إذا صحت تتغاير الأنظار[2] .

---

(١) يقول الشيخ محمد رضا المظفر فى كتابه « عقائد الشيعة » : من يستغرب الرجعة يكون بمثابة من يستغرب البعث فيقول : « من يحيى العظام وهى رميم » فيقول : (قل يحييها الذى أنشأها أوّل مرة وهو بكل خلق عليم) ، وينهى بحثه فى هذا الصدد بقوله : على كل حال . فالرجعة ليست من الأصول التى يجب الاعتقاد بها . وإنما اعتقادنا بها كان تبعًا للآثار الصحيحة والواردة عن آل البيت الذين ندين بعصمتهم من الكذب . وهى من الأمور الغيبية التى أخبروا بها ولا يمتنع وقوعها .

(٢) فى كتب أهل السنّة أقاويل شتى : يتكلم الشعرانى عن الولاية أنها « مواهب مخصوصة للأوتاد والأبدال والأئمة من أصحاب الدوائر والأعداد وأصحاب النوب والأفراد » ثم يقول : « وقد اجتمعت هذه المراتب كلها فى خاتم الولاية المحمدية وهو المهدى أخو عيسى عليهما السلام ، فى الختمية ، لقوله فى حقه يقفو أثرى ولا يخطئ . كما جمع له مرتبة الدعوة إلى الله تعالى بالسيف وإقامة الحجة وهذه مرتبة العصمة التى لا يتصف بها إلّا نبىّ أو خليفة الله تعالى .. ثم اعلم أن العلوم الحاصلة عن طريق الكسب والوهب من علوم التوحيد يجب سترها عن الناس لما فيها من الغرابة والتبرى من المعقول والمنقول . وقد اقتفت الكمل من الأولياء هذه الآثار عن الصحابة والتابعين شفقة على ضعفة الناس الجاهلين بهذه الطريقة اتباعًا لقوله ﷺ : « حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله » .

ومن الآخذين بسبيل التصوف قائلون بعلم الباطن وما فيه . وفى قواميسهم شطحات ومقولات =

وابن الجوزى الحنبلى يسمى القائلين بالرجعة فى كتابه « تلبيس إبليس » « الرجعية » . ولقد أسلفنا تضعيف بعض محدثى أهل السنّة للقائلين بالرجعة .

= كثيرًا ما تتجه اتجاهات غريبة عن الإسلام كمقولات « وحدة الوجود ، والفناء ، والمحو والحلول » وما قول الحلاج من أقوالهم ببعيد « أنا الحق وما فى جبيى إلا الحق » !!

ولقد ازدهرت فى القرنين السادس والسابع الهجرى أفكار فلسفية غريبة على تصوّف أهل السنّة . وهو متمثل فى زهد الصحابة وحده .

ومن هذه الأفكار فكرة تطهير الروح بالارتياض والخلاص من مطالب الجسد . يصل بها الإشراقيون إلى القول بأن الرياضة الروحية وتهذيب النفس هما الوسيلة الوحيدة للمعرفة . أما الغلاة فيعذبون الجسد تعذيب البراهمة والبوذيين الهنود . وآخرون يأخذون من الهنود وفكرة الوحدة الثابتة الجامعة لكل ما فى الوجود . فالكل واحد .

والحلاج (٣٠٩) ومن ذهب مذاهبه يقولون بالحلول الإلهى فى بعض المخلوقين .

ومن المسلمين من أصبحت « الوحدة » أنشودة على لسانه مثل محى الدين بن عربى . ومنهم من وصل الذات الإنسانية الفانية بذات الله الخالدة ، وصلاً سبيله المحبة التى تبلغ درجة السكر والغيبوبة عن الحسّ ، مثل ابن الفارض (٦٣٨) وابن عطاء السكندرى . وعند بعضهم كلام جيد يفهمه البعض فهمًا ضارًا – وقد ترتب على هذه الأفكار نشوء أفكار أخرى ، كالإيمان بالخوارق !! وكرامات الأولياء !! وأصبح الولىّ عند البعض مكشوفًا عنه الحجاب مادام يفنى فى ذات الله ويخرج عن المألوف !!